

محمد فتى



رواية



52

روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى, القاهرة

رقم التصنيف: 819.008

رقم الإيداع: 2016/10144

الترقيم الدولي 9- 299- 751- 977- 978- I.S.B.N:

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

القاهرة- ج م ع

تليفون +2 01222235071

rwafead@gmail.com

"ربما لو كان لهذه الدائرة التي نحيا بها أطراف محشوة بالجبن مثل البيتزا, لصار العالم حينها لذيذا أكثر".

ابتسمت وهي تتذكر الطفلة الممدة بين ذراعي أبيها على فراشها قبل النوم, وهي تهز ذيلها, وتتوسد رأسها كتفه, وتخبره عن لذة العالم ذي الأطراف المحشوة بالجبن, فيصح لها هو معلوماتها, "نحن لا نعيش بدائرة يا أبنتي, فعالمنا بيضاوي الشكل", ثم يشير على ضوء الأباجرة إلى تلك الصورة لعالمهم في الكتاب الذي يمسك به بيده, فتحدق في الكرة البيضاوية التي تنتهي بممرات أنبوبية متعددة تجعلها تتدلي في الفضاء المحيط بها من ناحية, وتربطها في الوقت نفسه بالطريق المقدس نحو عالم الخلود من ناحية أخرى.

تذكرت أيضا حينما كانت تغمض عينيها وتتخيل إنها حقا ترى هذا العالم, وكأن مكوكا فضائيا عملاق يقترب منه في الفضاء الخارجي ويصور حركته الدقيقة في هذا الفضاء المحيط به.

قبل أن تعود وتفتح عينيها على صوت أبيها وهو يعيد على مسامعها الجملة التي تتكرر عليهم منذ الولادة وحتى الرحيل, "نحن نولد هنا يا صغيرتي, ولكننا لا نموت هنا, لم نخلق لنموت هنا, بل

خلقنا لنخوض تلك الرحلة المقدسة، التي يحقق فيها واحد منا النصر لأبناء عائلته كلها، ويخلدهم في العالم الآخر، هذا ما نعيش لأجله".

وهنا تعود لتغمض عينيها مرة أخرى وهي تتخيل إنها تقود الملايين من بني جنسها بينما تحمل سيفاً وردياً، وتقف أمام البوابة التي تقودهم إلى العالم الآخر، تفتحها بسيفها وتعبّر وهم يهتفون باسمها من ورائها، تودعهم وهي تنتقل إلى عالم الخلود، إنه الحلم الذي راودهم جميعاً صغارا، وينتظر كلا منهم دوره ليبدأ رحلته علّه يكون المختار الذي يتحقق له هذا الحلم.

كثيراً ما سألت عن الحياة في هذا العالم الآخر، كيف لها أن تكون؟، ما الذي يجعلها مميزة إلى هذا الحد؟، ولكنها لم تحصل على إجابة محددة قط، يقولون إنها الجنة، حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، كل ما يقال أن يوماً واحداً هناك قد يعادل حياتهم كلها هنا التي يكبرون ويشيخون فيها، لا أحد يعرف تحديداً، ولذا فإن نهاية الحلم بالنسبة لهم جميعاً هو فتح تلك البوابة التي تقود إلى هناك حيث الخلود، والجميع يهتفون باسم البطل العابر المنتصر، لا يتعدى خيالهم في أحلامهم هذه اللحظة.

"ذراعاك كبيران يا أبى".

كانت تقولها ثم تتحرك وهي تحاول أن تملأ الفراغ بين ذراعيه، قبل أن تمسك بهما وتضمهما عليها ليحيطا بها تماماً، وابتسمت أيضاً وهي تتذكر ذلك، ولكنها ابتسامة حزينة، حزينة لأنها تذكرها أن منذ زمن طويل لم تضمها هاتين الذراعين.

"يوماً ما سأكبر، ولن تتمكن من أن تغلق ذراعيك عليّ بهذا النحو".

كانت تقولها مداعبة، فيرد أبوها على دعابتها بكل جدية:

"ولكن ذراعيّ أيضاً سيكبران معك".

فتقول مستنكرة، "ولكنهم أخبرونا في المدرسة أنه حينما نكبر نتوقف أعضاؤنا عن النمو".

فبيّتسم وهو يضمها أكثر ويقول: "إلا ذراعي الأب يا ابنتي، جميع الأعضاء تتوقف عن النمو إلا ذراعي الأب، مهما كبرت ستظلين صغيرتين بينهما، وسيظلان ملجأك حينما لا يسعك في العالم مكان".

تنهدت وهي تتذكر كلامه كله هذا وتتعجب، كيف توقفا ذراعيه عن النمو؟، كيف لم يعدا قادرين على ضمها؟، ربما منذ أن أحبت وضربت بتقاليد مجتمعها كلها عرض الحائط.

أزاحت الغطاء من فوقها بذيلها الطويل وهي تنفض ذكريات الطفولة عن رأسها ثم نهضت ووقفت أمام المرأة، تتخلل أصابعها شعرها البني لترسله خلف عنقها قبل أن ترسل لنفسها قبلة في المرأة وهي تغمز لنفسها بعينها اليسرى، فهكذا كان على يومها دوماً أن يبدأ، وهي تخبر نفسها أنها جميلة.

أخذت حمامها ثم ارتدت فستانها وحملت حقيبتها وهي تحضر مفاتيح سيارتها وبطاقة هويتها من على الطاولة، البطاقة التي حملت صورتها وإلى جوارها "52".

في عالمها لا يحملون أسماء, بل أرقام, الأرقام أكثر واقعية, فهي لا تتكرر ولا تتشابه, ما حاجتك لأسماء مكررة تحملها فقط لأن شخص غيرك لا تعرف عنه الكثير, سوى أنهم يتبركون به, قد حملها قبلك منذ وقت طويل؟

أخذت تنتظر إلى الحرف الكبير الذي كتب تحت رقمها مباشرة, "A", وصوت أبيها يعود ليتردد صدها برأسها "العائلة يا أبنتي, نحن نفعل ذلك من أجل العائلة أولا وأخيرا قبل أن نفعله من أجل أنفسنا".

لم تفهم طيلة سنوات عمرها التي تعدت العشرين لما يهتمون بأمر العائلة إلى هذا الحد؟, هي تنتمي للعائلة "A", أفضل العائلات الموجودة في هذا العالم, العائلة التي تحمل الجينات الأفضل على الإطلاق, الجينات الخالية تماما من أي عيوب.

بمجرد إدخال رقمها ولقب عائلتها على كمبيوتر عالمها تظهر مباشرة جيناتها التي تعزز بها كثيرا, الجينات التي شكلت صفاتها وملامحها كلها, شعرها البني, حدقتا عينيها البنية كذلك, بشرتها البيضاء, عيناها الواسعتان, فمها الدقيق, وجهها المثلث ذو الذقن المدببة, طولها المتوسط, وما إلى نهاية تلك الأوصاف التي يتم اختصارها في كمبيوتر عالمها برقم "52", اختلاف صفة واحدة يغير الرقم تماما, فعلى سبيل المثال, عند إدخال رقم "54" بدلا من رقمها سوف يظهر صورة ابنة عمها التي تشبهها في كل شيء, عدا أنها أقصر منها بشكل ملحوظ, على عكس "62" التي كانت طويلة للغاية, أو "64" التي كانت شقراء, وهكذا.

ألقت نظرة أخيرة في المرأة قبل الخروج وهي تقول, "أنا أجمل منهن جميعا", قالتها وهي ترى نفسها بعينيها هو, وتتذكر حين يغازلها ويخبرها بأن بعض القصائد لم تكتب, بل خلقت وسارت وابتسمت وتحدثت وضحكت, وأولئك الذين فعلت معهم هذا هم فقط القادرون على قرأتها, هي أجمل منهن جميعا لأنه يراها كذلك, وكان هذا كافيا لأن تبدأ يومها سعيدة, وانطلقت لتبدأ يومها هذا.

الجحيم بالنسبة له هو رنين منبهه ليوقطه ويخبره إنها السادسة والنصف صباحا, يخبره أن عليه أن يواجه هذا العالم القبيح ليوم آخر, أزاح غطائه بدوره وقام نحو دورة المياه وما هي إلا دقائق حتى كان خارجا منها, وأمام مرآة أخرى كان الصباح بطعم مختلف, صباح كالعادة حزين, صباح لا يحمل أية ابتسامات, فالوحيدون لا يبدعون صباحهم بالابتسام.

أغمض عينيه وهو يعود إلى عالم أحلامه التي لا يكف عنها سواء كان نائما أو مستيقظا, في عالم آخر ربما كان على الصباح أن يبدأ بعينيها النصف مغمضتين لأنهما لم تستيقظا بالكامل بعد, وحدها قبلة الصباح هي الصفعة التي ستخبره حينها أنه لم يعد نائما, هي التي ستجعله يفيق, وتجعلها تفيق معه, ربما لهذا يقدس الوحيدون فنجان القهوة الصباحي, فهم يحاولون سرقة الإحساس نفسه حينما تلتقي شفاههم بالشفة الوحيدة والقاسية لفنجان القهوة, يحاولون أن يفيقوا بهذه القبلة البائسة, ولهذا فهو لا يشرب القهوة أبدا, ليس لأنه ليس وحيدا, ولكن لأنه ليس في حاجة لمن يذكره بوحده تلك, ابتسم وهو يتخيل إنه يقبل عينيها السعيدة والمبتسمة قبلة أخرى فقط لأن اليوم بدأ وهما معا, قبل أن يخوض المهمة الأكثر خطورة والأكثر سخفا في العالم, والتي تكمن في مغادرة الفراش لمواجهة الأشياء نفسها, مواجهة هذا العالم نفسه, فهذا العالم سيئ, سيئ إلى الحد الذي يجعله يتساءل كل يوم, لما لا أستحق أن أكون سعيدا؟, ووحدها كانت قادرة على أن تجعله يحتمل كل هذه الأمور في كل صباح.

عاد منبهه للرنين ليوقطه من كل أحلام اليقظة تلك كما أيقظه منذ قليل من أحلام نومه, مشط شعره الأسود الناعم المتدلي على كتفيه, قبل أن يحبسه داخل القبة التي تحمل اللون نفسه, ثم غطى عينيه, السوداء أيضا, بنظارة شمسية, وأرتدي سترته وأستعد للخروج من المنزل, المهمة الصعبة التي عليه أن يكررها كل يوم, أن يدير مفتاح الباب ويخرج إلى السخافات التي يعرف جيدا أنهم لا يكفون عنها.

هو "111", أو كما تحب أن تمارحه هي, عاقد الحاجبين, فقد كانت تخبره دائما بأن اسمه محفورا على جبينه بين حاجبيه من كثرة ما يقطبهما, "لا تبدأ يومك بهذه التكشيرة, أخشى لو كنا معا ألا أتحمّل رؤيتها مع بداية كل صباح", كانت تقولها له مازحة, فيجيبها بجدية "لو كنا معا لما بدأ الصباح بها أبدا, أما وما دمنا لا نستطيع أن نكون معا, فهل لك أن تخبريني ما حاجة العالم لأن أبدأ يومي بالابتسام؟ بل ما حاجتي أنا لذلك؟".

وكان على حق تماما, فأى شيء هذا في هذه الحياة الذي يستحق أن نبدأ يومنا مبتسمين من أجله؟, أن يبدأ يومه عابسا منطقي أكثر, ولكنها لم تكن تستسلم أبدا, فكانت تعود لتجادلها عليها تحظى منه بابتسامته التي تعشقها.

"أن تبدأ يومك مبتسما لن يجعل العالم مكانا أكثر سعادة, ولن يجعله يبادللك الابتسامة بأخرى, ولكن بالتأكد أن تبدأ يومك عابسا لن يجعله سوى مكانا أكثر بؤسا".

ولم يقتنع بما تقول, ولكنه أيضا لم يرى وجهة نظرها خاطئة, فالأمر كان يتعدى حسابات الخطأ والصواب, وعلى الرغم من ذلك حاول فيما بعد أن يؤدي الكثير من تمارين الابتسام كل صباح أمام المرأة, وفشلت كلها, فقرر أن يكون على طبيعته, اكتشف أن الابتسامات الناقصة أقرب إلى العبوس منها إلى الابتسام, والضحكات الناقصة تجعل الوجه أكثر بؤسا وحزنا, ولذا فليكن عابسا ناجحا أفضل من أن يكون مبتسما فاشلا.

يتميز "111" بطوله الفارع, وبنيته الرياضية, وبشرته البيضاء كقطعة ثلج نقية, وفي ظروف أخرى كان كل هذا كافي ليتم تصنيفه على إنه واحد من حاملي الجينات المميزة, جمال خلقته وحده يرشحه لذلك, ولكن, الحياة لا تعطى كل شيء, فهو ينتمي إلى العائلة "F", وبالنظر على بضعة أزرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر الذي يحمل جميع بياناتهم يمكن من السطر الأول الذي سيظهر لأي أحد أن يعرف لما أصبح "111" محل سخرية من الجميع.

(العائلة "F": هي العائلة التي تتكون من الحيوانات المنوية التي تحمل تشويهاات جينية تجعلها غير قادرة على التخصيب).

هذا هو أول ما سيقابل من يبحث عن هذه العائلة, أن تولد وتعيش حياتك كلها وأنت تعرف إنك لن تكون البطل الذي ينتظره الجميع, لا يمكنك أن تشارك من حولك الحلم نفسه.

أن تنتمي إلى عائلة المشوهين فهذا لا يعنى أن لا أمل لك بالعبور إلى عالم الخلود فحسب, بل يعني أيضا إنك لن يمكنك سوى أن تشغل الوظائف الدنيا في هذا العالم, لا يمكنك أن ترتقي في مهنتك وتذهب بعيدا, يعني أن تنتمي إلى أولئك الذين لا يهتم ذويهم بتعليمهم فهم على أي حال لن يغيروا شيء, ومن يعلمه أهله منهم فهو في الغالب لا يهتم بدروسه ولا ينتبه في الحصص, فبماذا سيفيده كل هذا؟, ينظر الجميع إليهم على أنهم بضعة أعداد زائدة تحتل مكانا في هذا العالم, وإنهم إذا اختفوا من الوجود فإن ذلك لن يعني سوى توفير المزيد من الهواء والطعام والشراب للبقية, إنه واحدا من هؤلاء الذين حرمت عليهم الأحلام.

في العادة لم يكن هؤلاء محل اهتمام الآخرين في أي شيء, فدائما ما يكون حاملي الجينات المشوهة أصحاب عاهات خلقية تميزهم, إما أن يكون الذيل ملتقا حول العنق, أو أن يكون قصير

جدا مما يعيق حركته, أو أن تكون الرأس عملاقة أو على العكس صغيرة للغاية, أو أن تكون دبوسية الشكل, أو أن تكون الأعناق أو الذبول ملتوية, أما بالنسبة له فالأمر مختلف, لقد كان جميلا بشكل لا يدل على إنه واحدا من هؤلاء, ولا أحد يدرى كيف حدث ذلك, لقد كان حالة استثنائية جعلته معذبا طيلة حياته كلها, معذبا لأنه كان منبوذا بين الجميع, غير محسوب على هؤلاء ولا على هؤلاء, فمن هم مثله من العائلات الأخرى ينظرون إليه دائما كما ينظرون إلى جميع المشوهين على أنهم أقل منهم, وليس هذا فحسب, بل يتعجبون من محاولاته للخروج عن هذه الصورة التي رسموها لبني عائلته, أما أقرانه المشوهين فيرونه شاذا عنهم, يزعجهم وجوده بينهم كما يزعجه, فهم على عكسه مجموعة من المتسكعين الكسالى الذين لا يفعلون في حياتهم الكثير, لا أمل ولا طموح لهم, أما هو فإن إصراره منذ اليوم الأول على أن يكمل تعليمه, ثم تفوقه عليهم جميعا, بالإضافة إلى كونه جذابا, كل هذا جعلهم يحقدون عليه, وجعله في الوقت نفسه محل سخريتهم في كل وقت, ففئة تسخر منه لأنهم لا يرون جدوى في كل ما يفعل, والفئة الثانية كلما نجح في شيء عادوا إلى تذكيره بأنه يحمل ثمة جين لعين سيجعله في النهاية يفشل في أن يتفوق عليهم في المهمة الأهم, المهمة الأخيرة التي يعيشون من أجلها, كلما حقق المزيد من النجاح أخفوا حقدهم في ضحكاتهم, ولكنه ورغم كل هذا لم يستسلم, كان يرفض الشعور بالموت الذي أرادوا أن يفرضوه عليه.

ولأن الأموات لا يصدرن صوتا, فقد كان يعشق أن يصنع الجلبة أينما ذهب, كان يريد أن يثبت في كل ما يفعله إنه حي, في غنائه و رقصه ودببيه المميز على الأرض, مما جعله محط إعجاب العديد من الفتيات, وكان هذا أمرا شاذا, فالفتيات عادة لا ينجذبن لهؤلاء المشوهين, الفتيات يعشقن الأبطال, وكان هذا سببا آخر في أن يكون هناك المزيد من الحاقدين عليه, فلم يكن الأمر يتحمل منافس آخر على الفتيات, اللاتي برغم كثرتهم كن المميزات منهن عددهن ليس كبيرا.

خرج من بيته, ثم غادر حديقة منزله, قبل أن يستقل دراجته التي تحتوى على بدال من جهة واحدة, لف طرف ذيله عليه ثم تحرك, استعدادا لمواجهة يوم آخر, يوم كعادة كل الأيام السابقة لن يحمل سوى الألم, وكم كانت فكرة اعتياد الألم في حد ذاتها مؤرقة, الفكرة التي يحاول الكثيرون كل يوم رفضها ومقاومتها, حتى يجدوا أنفسهم ذات يوم قد تقبلوها دون أن يعرفوا كيف وصلوا إلى هذا؟, ولكنه كان يجاهد حتى لا يصل إلى هذا اليوم, وكان هذا هو سر عذابه, فالمعذبون هم أولئك الراضين المقاومين, الذين لم يتقبلوا حياتهم بعد.

انطلق "111" على دراجته تحت السماء الوردية, يستمع إلى موسيقاه الصاخبة التي رفع صوتها حد النهاية, إنه الصخب الذي يصنعه بنفسه كي يخرس به صخبا آخر فرض عليه, بينما أخذ ذيله الطويل يتحرك على بدال الدراجة بسرعة ليقطع الطريق بين البيوت المتراسة على الجانبين والمكون أغلبها من طابق واحد, كان كعادته يريد الوصول بأسرع ما يمكن, لا يريد أن يرى أي شخص قد يعكر عليه يومه مبكرا, ولهذا لم يحب الشوارع والطرق يومًا, كان دوماً يهرب من العيون التي تلاحقه بها, وزاده هذا بغضا لهم جميعا, ليس فقط لأنهم دفعوه دفعا إلى الانعزال, ولكن لأنهم فوتوا عليه متعة التسكع بالشوارع دون أن يؤذيه أحدهم بكلمة أو نظرة وربما يصل الأمر أحيانا إلى تناول أو احتكاك مباشر, فوتوا عليه متعة الاستمتاع بالطريق نفسها, لقد أصبح كفتاة تعيش في مجتمع همجي تعرف جيدا أن الشارع بالنسبة لها هو المكان الأكثر خطورة في عالمها, فأصبحت تمقته كما لم تمقت أحد.

ومن أحد البيوت انفتح باب وخرج منه حيوان منوي ما إن رأى "111" حتى رفع يديه القصيرتين وأخذ يلوح له بهما في مشهد كوميدي, فقد كانت يديه قصيرتان وجسده ضئيل ينتهي بذيل قصير أيضا, بينما رأسه ضخمة للغاية, يغطيها شعر برتقالي قصير ومجعد, كان أحد هؤلاء المشوهين الذين يتجاهلهم المجتمع, ولكنه كان يتمتع بروح مقاتلة, فقد كان يقابل سخرية الساخرين بالضحك, بل وبالسخرية منهم أيضا ومن نفسه, كان محبوبا لخفة دمه, كما إنه لم يستسلم لحالته, فأصبح أحد المتطوعين الذين يخضعون لتحاليل وتجارب بمعمل المدينة الذي يعمل به "111", تلك التجارب التي يحاول بها العلماء إيجاد حلول لهذه التشوهات, وعلى عكس الكثير من هؤلاء المتطوعين لم يخجل من ذلك, ولم يخفه, بل كان يصرح في كل مكان إنه ربما لن يكون أحد هؤلاء الأبطال الذين يعبرون البوابة وينتقلون إلى عالم الخلود, ولكنه يسعى لأن يكون واحد ممن سيخلدهم تاريخ هذا العالم إذا تمكن العلماء من التوصل إلى حل نهائي يقضى تماما على التشوهات, سيخلد اسمه هنا في عالمه وليس هناك في عالم لا يعرفون يقينا ماذا يحدث فيه؟

أخذ يقفز ويلوح لصديقه المسرع بالدراجة علّه يراه ويقله في طريقه, ولكن لم ينتبه "111" له, وهنا عدل الأول من وضعية حقيبة ظهره ليثبت ذراعيها على كتفيه جيدا, وأطلق يعدو خلفه.

عرج "111" في شارع جانبي وهذا الصديق خلفه وأنفاسه تتلاحق محاولا اللحاق به, وهناك كانت مجموعة من الصغار يلعبون الكرة, ما أن رآه أحدهم حتى توقف و صوب الكرة على

وجهه وركلها بقوة, فأنحنى الصديق ليتهاقدها, وحينما لم تصبه التفت إلى الصبي وأخرج لسانه له وهو يكمل عدوه كأن شيئاً لم يكن, وعند أول الطريق أغلقت إشارة المرور التي تقود إلى الشارع الرئيسي في وجه "111" بضوئها الأحمر ليتوقف, وهنا لحقه صديقه واضعاً يده على كتفه, بينما كانت يده الأخرى على صدره تحاول تهدئة أنفاسه المتلاحقة, وقد أنحنى ظهره نصف انحناء من التعب, وألقت "111" إليه ما إن شعر بيده على كتفه, وما إن رآه حتى أبتسم وهو ينتزع السماعات الكبيرة التي كانت تغطي أذنه, فقال صديقه له وهو يرسم ضحكة واسعة على فمه:

"أخبرتكَ مراراً أن عليك أن تتوقف عن الاستماع إلى نفسك حتى تتمكن من سماع الآخرين".

"وأجبتكَ مراراً أنى لا أعبأ بهؤلاء الآخرين".

قالها "111" وهو يشير إليه ليقفز على الدراجة خلفه وهو يكمل:

"أسرع فالإشارة ستفتح".

قفز الصديق خلفه وأعلنت الإشارة ضوئها الأخضر فتوقفت السيارات بالشارع الرئيسي وعبر "111" الطريق إلى الجانب المقابل حيث المبنى الأبيض المكون من طوابق أربع, والذي يحمل لافتة كبيرة كتب عليها "معمل أبحاث مدينة الحيوانات المنوية".

"صباح الخير 153".

قالها حارس الأمن وهو يضحك في وجه الصديق الذي كان يحمل اسم "153" وكلاهما يرفع كفه ويضرب بها كف الآخر, قبل أن يعتدل الحارس في وقفته وهو يلتفت إلى "111" ويقول بكل جدية:

"صباح الخير".

أوماً "111" برأسه للحارس دون أن يبتسم ثم اجتاز البوابة حتى وصل إلى مدخل المبنى, ثم قام بركن دراجته في المكان المخصص لها قبل أن يميل على الحديقة الموجودة أمام المبنى وينتزع وردة أمسك بها جيد وانطلقا كلاهما إلى داخل المبنى.

"اذهب وسأوافيك سريعاً".

قالها "111" لصديقه وهو يقفز درجات السلم المؤدى إلى أعلى بينما كان "153" يتجه نحو المصعد فضحك عالياً وهو يقول "خذ وقتك".

وفى خطوات سريعة كان "111" قد صعد إلى الدور الأول ثم أنحنى يمينا ليقف أمام الواجهة الزجاجية العريضة وينظر إليها وابتسم, وقبل أن يدلف إلى الغرفة كان قد لمح حيوان منوي آخر, متوسط الطول, أسود الشعر وأجعه, مشوه آخر ممن يعملون بالمكان يلتف ذيله الطويل حول عنقه, سنعرف فيما بعد أنه يحمل رقم "1313".

كانت "52" وحدها في المعمل, قد انحنيت في معطفها الطبي الأبيض لتفحص عينة تحت الميكروسكوب بينما رفعت شعرها وعقدته خلف رأسها في دائرة كبيرة حسب تعليمات الوقاية,

فتح الباب بكل هدوء وسار بخفة دون أن يصدر أي صوت حتى أصبح خلفها تماما, ثم مال برأسه نحو شعرها وأغمض عينه وأخذ نفسا عميقا وهو يشم رائحتها, نفسا أصدر صوتا كان كافيا لأن يصيبها بالرعب, وما أن استدارت حتى كان قد اختفى من خلفها تماما, وحينما استدارت مرة أخرى كان يقف أمامها مباشرة تفصلهما المنضدة المستطيلة التي تحمل الميكروسكوب وكلتا يديه خلف ظهره, ارتعبت هذه المرة أكثر وشهقت فضمت قبضتها ولكمته في كتفه بدلال وهي تقول:

"لقد أرعبتني, كف عن ذلك".

فقال وهو يميل برأسه نحوها " سأكف حينما تكفين أنت عن جعلي أفتقدك إلى هذا الحد", ثم أخرج يده التي تحمل الورد من خلف ظهره ومنحها إياها, أخذتها منه فمد أصابعه ليلمس أطراف أصابعها بينما تتناول الورد فخلت وسحبت يدها والورد سريعا والخلل يصيب وجنتيها بلون وردي يعشقه كثيرا, قال وهو يضغط على كل حرف في جملة وينطقها ببطء " افتقدتك كثيرا", رفعت الورد إلى أنفها وهي تشمها وتقول "وأنا أيضا".

- أحبك.
- ولكنني أحب الشيكولاتة, قالتها بكل طفولة.
- وأنا سأحضر لك الكثير من الشيكولاتة.
- فقط الكثير أم الكثير كثيرا؟
- الكثير كثيرا.
- إذا سأحبك.
- إذا فأنت ستحبين كل من يحضر لك الكثير كثيرا من الشيكولاتة؟
- لا.
- كيف ذلك؟
- لأنني أريد أن تكون أنت من يحضرها.

أخذ ينظر إليها لثوان, تلك النظرة التي تعرفها جيدا وتخجلها كثيرا, والتي كان يكتفي بأن يملأ نفسه منها, ثوان لم يعكرها سوى صوت الباب وهو يفتح وحيوان منوي طويل وقوى البنية في زى عسكري يدخل منه بخطوات مسرعة ويتبعه جنديان كان أحدهما هو تابعه الدائم "1313", تقدم الأول بخطوات ثابتة نحو "52" وهو يقول:

"عذرا سيدتي ولكنك تعلمين أن هذا الجزء لا يسمح بدخوله لغير العاملين على الأبحاث".

ثم نظر إلى "111" وهو يكمل "وخاصة على المشوهين".

جعلته الكلمة ينتصب في وقفته فيبدو أن ما كان يخشاه قد وقع وأن اليوم قد تعكر مبكرا, ولكنه حافظ على هدوئه, بينما اعتدلت "52" لتواجه الضابط وهي تقول بغضب "أظن أن بإمكانك أن تمارس عملك بشيء من اللطف والذوق دون إهانة الآخرين, ثم إنك تعلم إنه ليس غريبا ويعمل بالمكان, وأنا من طلبت أن يصعد ليحضر لي شيئا ما".

ابتسم الضابط وهو يقول باستفزاز:

"أنا رجل عسكري يا سيدتي لا أعرف شيئاً عن هذا اللطف, كل ما أعرفه هو أداء عملي وتنفيذ القوانين, وبإمكان الآخرين أن يجنبوا أنفسهم الإهانات إذا التزموا حدودهم ولم يقربوا الأماكن التي لا يسمح لأمثالهم بدخولها".

كان قد رفع صوته في الجملة الأخيرة بكل تحد فتحرك "111" خطوة للأمام وقد نجح الأخير في استفزازه, حينما أنفتح الباب فجأة ودخل منه حيوان منوي يحمل رأس أينشتاين ويرتدى معطف طبي هو الآخر, ومن خلفه "153" وهو يغمز لصديقه بينما ابتسمت "52" على الفور حينما رآته.

"إنه معي, أعتقد أن هذا يكفي".

قالها أينشتاين ليصمت الضابط تماماً, كتم غيظه وهو يحنى رأسه إجلالاً واحتراماً لم يخفياً غضبته قبل أن ينتحى خطوة جانباً مفسحاً الطريق لأينشتاين وهو يتقدم, ثم قال, " حسناً يا بروفيسور, بعد إذنك".

ثم أدار ظهره وأنصرف ومن خلفه الجنديان.

ضحك "153" وهو يقول, "لقد رأيته يا صديقي يصعد في إثرك بعد أن أبلغه خادمه الثعبان بأنك هنا فعرفت أن ثمة مشكلة ستحدث, وبالطبع من يمكنه أن يجنبنا كل المشكلات هنا سوى البروفيسور؟"

"لا تخشياً شيئاً يا أبنائي ما دمت موجوداً".

قالها البروفيسور أينشتاين وهو يتوسطهما ويربت على كتفيهما.

أينشتاين هو الحيوان المنوي الوحيد الذي لا يحمل رقماً, بل إن اسمه واسم أجداده معروفاً للجميع, في عالم آخر يظن الجميع أنه كان شخصاً, ولكنهم لا يعرفون أنه حيواناً منوياً يحمل كل الجينات الخاصة بهذا العالم الفذ, وإذا كان هناك رجل بالخط المناسب ليخصب حيوانه المنوي أينشتاين إحدى البويضات, فإننا سوف نرى في هذا العالم, عالماً نحن, أينشتاين آخر, وفي عالمهم كانوا يعلمون جيداً أن هذا الحيوان المنوي هو الأكثر ذكاءً وعبقريّة على الإطلاق, لذلك فقد كانت له مكانته التي يحترمها الجميع, جميع المسؤولين ينحنون أمامه, أما هو فيكتفي بالحياة في هذه المعمل منكبا على أبحاثه لحل مشكلات المدينة, حتى يحين الوقت لخروجه علّه يصيب لحظة تاريخية ويعبر إلى عالم الخلود, ولكن تاريخهم يحفظ جيداً أن ذلك لم يحدث سوى مرة واحدة, ولم يتكرر بعدها.

قال البروفيسور وهو يخاطب "52":

"لم يكن عليك الانفعال عليه يا ابنتي, فهو في النهاية أخيك, سيمكنك بحكم مكانتك الانفعال عليه هنا, ولكن ماذا ستفعلين معه في البيت؟, وفي النهاية هو يخاف عليك".

قالها وهو يربت على كتفها قبل أن يلتفت إلى "111" ويقول:

"وأنت لماذا لم ترتدي ملابسك بعد, هيا أمامنا الكثير من التحاليل يجب أن تساعدني فيها وصديقك صائم, لأنه إذا جاع فلن يدعنا كالعادة ننهي عملنا, إنه أول مخلوق تقع معدته في رأسه, جسده ضئيل للغاية بما يوحى أن كميات الطعام التي يأكلها تلك كلها لا يمكن أن يكون هضمها يحدث هنا", قالها وهو يشير إلى بطن "153" الذي تدمر وهو يتكاسل ويقول "لماذا لم يكن بإمكاننا أن نحصل على راحة اليوم؟, فنحن نريد أن نستعد للحفل الضخم غدا".

فضحك البروفيسور وهو يسحبه من يده نحو الخارج ويسأله "كيف حال صديقتك "224" الآن؟, هل تحسنت حالتها؟", فارتسمت على وجه "153" ابتسامة حزينة وهو يقول "ستتحسن بالتأكيد", فربت البروفيسور على كتفه بحنان أبوي قبل أن يلتفت إلى "111" الذي كان لا يزال على حاله معها فصرخ البروفيسور فيه مازحا "هيا أمامنا الكثير من العمل" ليتحركوا جميعا إلى الخارج وهي تتبعه بعينها حتى أخفي تماما, وقد وضعت الوردة على أنفها وضمتها بكلتا يديها.

في المساء كانت بمنزلها وقد جلست على رأس الطاولة ممسكة بملقعة وترتشف الحساء الموضوع أمامها.

في الوحدة, الجلوس على المائدة وحيدا لتناول الطعام هو ثاني أكثر الأشياء إيلاما, وهذا بالطبع بعد النوم والاستيقاظ في الفراش دون أن يكون أحدهم إلى جوارك.

أنفتح الباب ودخل أخيها "31", هو يكبرها ببضعة سنوات, وقف لثوان ينظر إليها فعادت للنظر إلى الطبق الموضوع على الطاولة ثم ارتشفت ملقعة أخرى دون أن تعيره أدنى اهتمام. فتقدم وسحب الكرسي المجاور لها ليجلس على يمينها وهو يسألها وقد تخلت ملامحه عن القسوة التي كانت مرسومة علي وجهه في الصباح, "ماذا أعددت لنا اليوم؟", ثم سحب ملقعة بدوره وارتشف من طبقها رشفة وهو يغمض عينيه ويتلذذ بالطعم "امممم, حساء الموز اللذيذ, لا أحد يصنعه مثلك أختاه".

أزاحت الطبق باتجاهه دون أن تنطق بكلمة واحدة وهي تقوم من مكانها, فأمسك بيدها ليمنعها من المغادرة وهو يقول بهدوء أقرب ما يكون إلى الرجاء:

"حاولي ألا تجبريني على مضايقتك, أنت تعلمين كم أحبك, وأخشى عليك من أمثال هؤلاء".

نظرت له مستكبرة وهي تتعجب: "هؤلاء!"

"نعم هؤلاء, هؤلاء الذين يحاولون الانتساب إلى العائلات الكبيرة مثلنا وهذا أمر لن يوافق عليه أحد مطلقا, كفاك جنونا أنت لا تعلمين كم السخافات التي علي أن أتحملها من الآخرين جراء أفعالك, أنهم يتمتمون ويتهايمسون في كل مكان, ولولا مكانتي ومكانة أبيك لأصبحت سخريتهم علنية وما قدرنا على رفع أعيننا في وجوههم".

كان قد رفع صوته وهو ينطق جملة الأخيرة بكل ضيق, فعادت للجلوس وقد انتقل الضيق إلى كل ملامح وجهها وهي تقول:

"الآخرون, الآخرون, تبا لهؤلاء الآخرين, إلى متى سنعيش حياتنا نراقب تصرفاتنا لأجلهم, ثم على أي أساس قسمتمونا على أهوائكم إلى درجات!! , كلنا حيوانات منوية".

سحب نفس عميقا ليتفادى التعصب وهو يقول بهدوء حافظ عليه بصعوبة:

"لا بالطبع, لا تقارني أمثال هؤلاء بنا".

نظرت إلى عينيه وهي تقترب بوجهها وتقول بكل استقزاز وتحد "أظنها مسألة كرامة الـ (Y) المعتادة, مسألة غيرة!! , أليس ادعى أن تترك هذه الأمور لنا نحن الـ (X)؟"

هب من مكانه واقفا وهو يستنكر بدوره ما تقول, "غيرة؟؟", أأغير من هذا؟, أي شيء يمكنه تحقيقه ولا يمكنني تحقيقه؟, بالعكس, حق عليه هو أن يحقد علينا جميعا".

"ولكنه لا يحقد, لا وقت لديه ليفعل, هو مشغول بعمله وحياته", ثم عادت لتقف وهي تقول, "وبى, عليك أن تعي ذلك جيدا, هو يكتفي بذلك فدعوه وشأنه".

"امنحيني سببا واحدا يدفعك للتمسك به إلى هذا الحد؟, سببا لأن نفسد علينا حياتنا ونعيش في ذل ما بقى لنا في هذه الحياة؟"

سأل سؤاله فالتفتت إليه وابتسمت للمرة الأولى منذ مجيئه وهي تقول بكل ثبات "لن تفهم", فسألها متعجبا "لم؟"

"لأنك لا تؤمن بالحب", هكذا قالتها بكل بساطة, فقلب شفتيه وهو يقول "لأن هذا الحب الذي نتحدثين عنه ليس موجودا, ما هو إلا وهم, ويوما ما ستقيقين منه نادمة وتتساءلين ما هذا الذي فعلته بنفسى؟, ولكنك حرة فيما تريدين أن تفعلينه بنفسك, أما ما ستفعلينه بنا فهو ما لن أسمح لك به, لأن هذا العار سيظل ملصقا بنا", وهنا اندفعت دون أن تشعر لتقول: "فشلك في تجربتين لا يعني أنه ليس موجودا", وسكت, ولم تشعر بالخنجر الذي طعنته به مع كلماتها إلا بعد أن خرجت هذه الكلمات منها, شعرت بالسخف ولكنه ابتلع أهانتها ولم يجبهها بشيء, بما كان يمكنه أن

يجيبها؟، ود لو يخبرها أن هاتين التجربتين تؤكدان أن هذا الحب الذي نتحدث عنه ليس له وجود، فالجميع بلا استثناء بعد وقت يندمون، ما أن يصلوا لما أراوه منذ البداية إلا ويصيبهم الملل بعدها ثم يأتي اليوم الذي لا يتحملون فيه ويرحلون بعيدا، بعد أن نكون نحن ضحينا بالكثير من أجلهم أو من أجل هذا الوهم، ود لو يسألها هل لها أن تخبره بما سيضحى حبيبها هذا؟، لا شيء، يريد أن ينتسب إلى عائلة ترفع من شأنه وستخسر هي في سبيل ذلك الكثير، وستخسر العائلة كلها معها، وحينما يمل سيرحل، كما رحلت من قبله من كانت لا تبحث سوى عن زواج مرموق فقط، وتركته بعد أن حقق لها ما أرادت، وكما رحلت بعدها من كانت تبحث عن تجربة تنسى معها ما مرت به في علاقة سابقة، وتركته أيضا لتذهب إلى آخر، كلهم يرحلون، والرابح هو من لا يضحى بالكثير، وهي تضحي بكل شيء بكل حماقة.

تتهمه أنه لا يعرف شيئا عن الحب، وأنه لم يحب، كان يريد أن يصرخ فيها، أن ما أحزنه أكثر لم يكن أن تهجره حبيبته مع آخر، بل إنها لم تجد سعادتها مع هذا الآخر، ماذا قد يكون الحب سوى هذا؟، لم يستطع أن يكرهها، أحزنه غيابها، أحزنه أن تتركه من أجل آخر لم يسعدها، آخر لم يقدم لها شيئا مما كان يقدمه هو، فضلت عليه من لم يكن بأفضل منه، ولذا فلم تتحمل معه طويلا وعادت إليه تسأله أن يغفر لها، وليتهم لا يعودون، فهذا يؤلم أكثر، لو لم يحبها حقا لسامحها، لنسى لها ما فعلت حتى وإن لم يرجعها سويا، ولكن هذا ما عذبه، إنه لم يستطع أن يسامح، ولم يستطع أن ينسى، وهل بعد هذا حب؟

كلمات كثيرة لم يستطع أن ينطق منها بكلمة واحدة، وفي الوقت نفسه كان يعرف حماقة العشق هذه جيدا، فالعشاق حمقى، يفقدون إحساسهم بالوقت، يظنون أن الآن تعني إلى الأبد، ولا يعرفون أن هذا الإحساس قد لا يكون موجودا غدا.

ألقت إليها وقال بكل هدوء، "دعيني أقص عليك قصة".

نظرت إليه مترددة، فمن ناحية هي لا تريد أن تسمع المزيد من هذا الهراء الذي يحاول أن يقنعها به، ومن ناحية أخرى كان صوته مجروحا، لقد شعرت بما فعلته به جملتها، شعرت بذنب أجبرها أن تبقى وتستمع لما سيقول، هي على أي حال لن تقتنع، أو عله ينجح في إقناعها؟، وأنتفض قلبها بشدة حينما وصلت إلى هذه الخاطرة، اللحظة التي نخشى فيها على معتقداتنا وثوابتنا، ولكنها عادت لتتماسك وهي تردد في نفسها "لا يمكنه أن ينجح في ذلك"، وشرع هو يقص قصته.

"في ليلة شتوية، كنت جالسا على مقهى وصوت الموسيقى ينشر الدفء بين رواده بينما صوت الهواء الجامح يحاول أن ينتزعنا من هذه الحالة التي يفرضها علينا صوت السيدة التي تغنى، أو إنه كان يكمل هذه الحالة التي لا يمكن وصفها بأية كلمات، وكنت قد جلست أطلع إلى المارة في هذا الوقت وأنا أرى على وجه كلا منهم قصة طويلة، ما بين فتاة مسرعة، وثنائي عاشق، وعجوز زاد الحزن ملامحه جمالا، وبينما شردت في كل هذه القصص التي أخذت تهرب مني بين الملامح، إذ بالقصة الأغرب تربت على كتفي.

كان صغيرا لا يتعد عمره العاشرة يسألني أن أمنحه قطعة معدنية، كان شحاذا يمر من هنا كثيرا وأتذكر أنني رأيته أكثر من مرة يقف أمام واجهة محل الحلويات المجاور وينظر إلى القطع المعروضة لبعض الوقت ثم ينصرف، ولست أدري ما الذي دفعني لما فعلته يومها؟، فلم يكن قد

مر على بالى قط من قبل أن أفعل ما فعلته هذا, وجدتنى أسأله, هل لو كان معه ما يكفى من المال وسألته أن يمنحني قطعة معدنية كما يفعل الآن لأعطاني إياها؟, ولم يفهم بالطبع, فعاد لترديد ما لقنه أحدهم إياه وأعاد على مسامعي الطلب نفسه ولكن هذه المرة بشيء من الريبة, وهنا وجدتنى أسأله:

- لو خيرتك بين أن أمنحك القطعة المعدنية التي تريدها وبين أن أمنحك الفرصة لتتذوق قطعة حلوى لم تتذوقها من قبل فماذا ستختار؟

ولم يتردد كثيرا, عاد للسؤال عن قطعه المعدنية المفضلة, كنت أعرف إنه لن يختار ما يجله علي أي حال حتى وإن كان يتمناه, وهنا كان علي أن أبهره, شرحت له متعة خوض تجربة لم يخضها من قبل, أن يتذوق قطعة الحلوى التي يصل ثمنها إلى أكثر من عشرين ضعف القطعة المعدنية التي يطلبها, يمكن لأي شخص أن يمنحه هذه القطعة المعدنية, ولكن وحدي سأمنحه هذه المغامرة, أقنعت أنه يستحق ذلك, يستحق أن يتذوقها لمرة في حياته.

كان قد تخلي عن خوفه حينما حسم قراره ووافق, وهنا أخذت اللعبة منحى آخر تماما.

- هل أنت متأكد من اختيارك؟

- نعم.

- ألن تدمنها وأنت لا تستطيع الحصول على ثمنها مرة أخرى؟, ألن تفسد عليك قطعة الحلوى هذه حياتك؟

- أريد أن أتذوقها.

وأخذته من يده إلى المحل المجاور, وكانت الأنظار كلها تتابعنا, جلسنا وطلبت له قطعة الحلوى, وأخذت أراقب لحظات انتظارها في عيني, كانت مليئة بالشغف, والترقب.

وجاءت القطعة, أخذ يتذوقها باهتمام باحث يكتشف شيئا جديدا, أو كرجل يتعرف على فتاة للمرة الأولى, جمالها أنساه مظهره المتواضع وهيئته البسيطة, جمالها منحه من الثقة ما أنساه نظرات من حوله له, بل أنساه حياته نفسها, لحظات منحتها له كإله صنع معجزة ثم أخذ يتابعها فخورا بنفسه, حتى انتهى.

وبعد أن انتهى منها نظر لي نظرة عجيبة لن أنساها, لم تكن نظرة شكر أو امتنان, لم تكن نظرة حزن, أو نظرة إعجاب, بل كانت نظرة كراهية, كراهية لكل ما منعه يوما من الوصول إلى هذه المتعة التي يعرف جيدا إنها لن تتكرر يوما ما, كانت نظرة كره للحياة كلها, ولي, كأي أذنبت حينما جعلته يعرف, وكأنه كان أفضل له ألف مرة أن يبقى الأمر مجرد خيال في عقله, أو أمنية بعيدة, وأنصرف دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ومن الحائط الزجاجي للمحل رأيته يربت على كتف أحدهم, وهو يسأله أن يمنحه قطعة معدنية".

قص قصته ونظر داخل عيناها بنظرة واثقة ولم يزد, وفهمت جيدا ما يرمي إليه, وضربتها لحظة الخوف ذاتها مرة أخرى في أعماقها, هل يمكن أن يأتي يوم ولا ينظر إليها "111" بالطريقة نفسها التي تحبها؟, هل يمكن أن تراها عيناها بنظرة أخرى؟, ونفضت رأسها لتطرد منها تلك

الفكرة وهي تعود إلي ثباتها وتسأله "هل انتهيت؟", وحينما أجابها بنعم قامت من مكانها وأدارت له ظهرها وهي تتحرك نحو غرفتها وتقول "سأنام".

"أنت مسئولة عن كل ما سيحدث".

واخترقت جملته أذنها لتتوقف مكانها, فقد أرعبتها الطريقة التي نطقها بها, فلم يكن يتحداها, بل قالها وكأنه يعرف جيدا ما سيفعله, ويبدو أن والدهما قد أستيقظ على صوت نقاشهما, خرج من غرفته وتقدم نحوهما, وكعادته حينما يتحدث يمسك لحيته البيضاء الطويلة بقبضة يده ليشدها قبل أن يمسح بكف يده رأسه الأصلع تماما, "ماذا هناك؟, لما كل هذا الجدل في مثل هذا الوقت؟, ماذا حدث؟"

صمت كلاهما ولم يجب أحد قبل أن تقول "أستأذذك يا أبى سأنام فلدى عملا كثيرا غدا بجانب أنى واجهت سخافات كثيرة اليوم".

قالتها وهي تنظر إلى "31" قبل أن تتحرك نحو أبيها وتقبله, فقبلها بدوره, وما أن انصرفت إلى غرفتها وأغلقت بابها خلفها حتى تقدم الأب نحو ابنه وهو يضع يده على كتفه ويقول بصوت منخفض حكيم, "ليس بالعنف ولا بالعند حل مثل هذه الأمور".

فقال "31" وهو يحاول أن يخفض صوته بدوره, "لم أعد أتحمّل يا أبى نظرات الجميع, وصبرك عليها وتذليلك لها لن يحل أيضا الأمور".

"صبرا يا ولدى صبرا, غدا الحفلة التي يقيمها أينشتاين احتفالا بأنه سيكون قائد المسير عند القذف القادم, نريد أن يمر هذا الاحتفال على خير, وبعدها, سيكون وحده تماما, سيذهب من يسانده ويدافع عنه دوما ويقف في وجهنا لأجله, وبعدها, هناك الكثير لنفعله".

قالها الأب وربت على كتف ابنه قبل أن يعود إلى غرفته, بينما كانت هي ممددة على فراشها تمسك بالوردة التي أهداها إياها وتهرب معها بالتفكير فيه وتبتسم حالمة, قبل أن تضعها في المزهريّة المجاورة لها مع الورود الأخرى التي تحتفظ له بها, ثم ذهبت في نوم عميق.

مساء اليوم التالي، بحديقة منزل أينشتاين، كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة هادئة، الحيوانات المنوية (Y) ترتدي البذلات السوداء والـ (X) في فساتين السهرة، والطاولات متراصة على الجانبين وقد جلس عليها مختلف المدعوين من كبار السن يتسامرون، بينما الشباب يرقصون على أنغام الموسيقى، والمسؤولين وكبار المدينة قد وقفوا يتناولون شرابهم ويتضحكون حول القذف القادم وأينشتاين بينهم.

"هل تظن أن عالم الخلود قد يشهد أينشتاين آخر؟" قالها أحدهم ضاحكا فرد أينشتاين "نحن نفعل ما بوسعنا يا عزيزي ولكنك تعلم أن الفرصة كثيرا ما تضع بين استمنا و واقيات ذكرية، وبين اختيار الطريق الذي لا توجد به البوابة، لست أدري لما هناك دائما اختياران؟، طريقان وليس طريق واحد، ونحن كما ترى كثيرا ما لا نستطيع إكمال الطريق نحو بوابة العبور، فالكهل يسقط سريعا في منتصف الطريق".

قالها مازحا فضحكوا جميعا وآخر يرد عليه "لا تقل هذا يا بروفيسور فصحتك أفضل من صحة الكثير من جيل الشباب".

عادوا ليضحكون وأينشتاين ينحني تحية للقائل وهو يقول "أشكرك على هذه المجاملة التي رفعت كثيرا من معنوياتي، سأذكر جملة هذه وستساعدني على أن أقطع المزيد من الأمتار"، عادوا للضحك في الوقت الذي وصلت فيه "52" في فستانها البنفسجي القاتم القصير الذي كشف عن ذيلها وذراعيها بينما تدلى شعرها خلف عنقها جملا كعادته، كانت بين أبيها وأخيها حينما تقدم نحوهم أينشتاين لتحيتهم "أهلا أهلا بصديقي، كم أنا سعيد بتشريفكم لي هذه الليلة".

"الشرف لنا يا بروفيسور أن نحضر يوما كهذا تقود فيه مسير نحو الخلود".

قالها أبوها وهو يشد على يد البروفيسور الذي رد قائلا:

"أتعني أنك لست سعيدا لأنك أخيرا ستتخلص من معارضي على الكثير من أفعالكم يا صديقي؟"

"إذا كان نتيجة التخلص منك هو وصول أينشتاين آخر إلى عالم الخلود ألا يجعلني هذا سعيدا؟" قالها ضاحكا بدوره فهز البروفيسور رأسه "كعادتك لا تحتاج وقتا للعثور على إحدى إجاباتك الدبلوماسية كأنك تحملها دوما في جيبك وتخرجها سريعا وقتما تحتاج إليها".

"إنه عملي لا تنسى ذلك" ارتسمت ابتسامته المميزة على وجهه وهو يعود إلى شد لحيته والمسح بالكف ذاتها بعدها على رأسه الأصلع.

ومن بعيد لمحته "52" جالسا على طاولة مع "153"، لم تفارقها عيناه منذ وصلت، كان متأنقا كما لم تر من قبل في حلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق تحمل لون الحلة نفسه، وكعادته لم يتخل عن سماعته الكبيرة التي يسير بها أينما ذهب ليهرب من الآخرين، ولكنها كانت معلقة حول عنقه وكان يكتفي بسماع الفرقة الموسيقية، استأذنتهم وتحركت نحو طاولته، وحينما تحرك أخيها "31" خلفها أسرع البروفيسور يمسك بذراعه وهو يقول "إلى أين تذهب، أبق معي فأنا أريد أن أخذ برأيك في بعض الأمور".

انتبه "31" بالطبع لمحاولة البروفيسور إبعاده عنهما ولكن لم يكن بوسعها أن يتهرب أو يتحجج بأي شيء ليلحق بها، نظر إليه والده الذي أومئ برأسه في إشارة لأن يطيع البروفيسور ولا يثير أية مشكلات، وبالفعل تأبطه البروفيسور وسار بينهما في المكان نفسه الذي كانت تحتله "52" عند مجيئهم، واتجهوا نحو الجمع الذي كان يقف بينهم منذ قليل.

تحركت هي نحو الطاولة بخطوات ثابتة وزاد تمايلها في حركتها من جمالها وأنوثتها، وعيناها المبتسمتان تنظران إليه بكل حب وشوق، وما أن وصلت عند الطاولة حتى تباطأت خطواتها لثانية قبل أن تعكس اتجاهها وتدير له ظهرها وتتحرك بعيدا نحو الفرقة الموسيقية وتختفي خلفها.

ربت على كتف "153" وهو يقوم من على مقعده فأبتسم الأخير وهو يقول له "لا عليك يا صديقي أنا هنا في انتظارك"، وبخطوات سريعة أسرع خلفها، تجاوز الفرقة الموسيقية، ثم ابتعد عنها بما يكفي تاركا كل هذا الصخب خلفه ولكنها لم يكن لها أي أثر.

أخذ يتجول في المكان بعينه يبحث عنها ولكن بلا جدوى، حينما حط كف صغير على كتفه، ودون أن يستدير، أغمض عينيه ثم أخذ نفسا عميقا استنشق فيه عطرها المميز.

"إذا لو اختفيت عنك فعلي أن أفقد الأمل في أن تجدني بنفسك؟"

قالتها فاستدار نحوها وهو يمسك بكفها ويقول "ولكنك لا تغيبين عني أبدا".

قبل أن يجذبها نحوه لتلتف يده الأخرى حول خصرها وهو يقول "هل تسمح لي سيدتي بالرقص معها؟"، ودون أن تنفقه بكلمة واحدة أخذ كلاهما يتمايل مع الموسيقى كأنها تعزف لهما وحدهما.

"اشتقت إليك كثيرا".

"ولكنني كنت معك هذا الصباح فقط في العمل هل نسيت؟"

"معي بينهم، تتبعنا عيونهم وتراقبنا، اشتقت لأن نكون وحدنا".

"ولكننا لسنا وحدنا بعد".

قالتها فرد عليها "إذن هيا بنا"، ثم أفلت يده التي تحيط بخصرها وجذبها لتتحرك معه نحو الأشجار ويختفيا تماما عن الأنظار.

أخذا يسرعان بينما تتعالى ضحكاتها وهو تقول "كان عليك أن تخبرني بذلك كي أحضر حذائي الرياضي، كيف لي أن أجرى في هذا الحذاء؟"

فتوقف ومال نحو ذيلها وهو يقول "هاتيه إذا".

خلع لها حذاءها وهي تستند على كتفه وتضحك وتقول "مجنون".

وأكملا عدوها حتى ابتعدا وأصبح صوت الموسيقى وكأنه يأتي من عالم آخر لا ينتميان إليه.

وتوقفا أخيرا وهما يلتقطان أنفسهما المتلاحقة وهي تقول "ماذا سأخبرهم حين أعود ويجدون جواربي قد اتسخت هكذا؟" فأبتسم وقال "انسيهم الآن، أنت معي".

ثم جلس عند الشجرة التي يقفان عندها وهو يسند ظهره إلى جذعها وجذبها من يدها فأسقطها إلى جواره لتتسخ يدها أيضا وهي تقول بدلال طفولي, "لااااا, ذهبت الأنافة كلها, حلتك وفتاني".

أمسك يدها ثم أخذ يزيل عنها الطين الذي لحق بها, فابتسمت وقالت:

"أنا سعيدة".

"وأنا خائف".

تفاجأت بجملته فأسرعت تسأله "مما أنت خائف؟"

شرد في عينيها قليلا قبل أن يجيبها "من رحيل البروفيسور, كنت أطمئن كثيرا لوجوده في صفنا, أما وبعد أن يرحل.."

قاطعته قائلة, "يكفي أنا معا, لسنا في حاجة لأحد سوانا كي يدافع عن حينا".

نظر إليها وهو يبتسم ويسألها "عن ماذا؟"

توردت وجنتاها ونظرت أرضا ولم تجبه, فلمس ذقنها بأطراف أصابعه ليرفع رأسها, ورفعت هي عينيها لتتظر في عينه نظرة واحدة قبل أن تعود لتخفضهما حينما أخلجتها تلك النظرة التي ينظر إليها بها, وفي هذه اللحظة بدت شفاتها قريبتان جدا, نظر إليهما وهو يتساءل, كيف يدعونهما شفتين؟, كيف علموهم في صغرهم أن لكلا منهم شفة علوية وأخرى سفلية؟, لقد أخطوا بالتأكيد, لو كانتا شفتان لما شعرنا بكل هذه الوحدة, هي بالتأكيد شفة واحدة, لها نصف علوي ونصف سفلي, شفة واحدة تنتظر أن تضرب شفة أخرى موعدا معها, وحينها يلتقيا سيصبحان حقا شفتين.

وانفجرت شفاتها الوحيدة في انتظار القبلية, وأقترب برأسه لتحضن شفته الوحيدة شفتها الأكثر وحدة, ولكنه فوجئ بضربة نزلت على وجهه من ذيل "31", لا يعرفان كيف لم يشعرا باقترابه, نزلت الضربة كضربة سوط لتصيب "111" في وجهه تاركة أثرا, وسحبها أخوها من يدها ودفعها إلى الخلف لتصرخ صرخة مدوية وهي تسقط بينما يخلى هو المسافة بينه وبين "111" منها قائلا له بكل عدائية "أجرو أيها المشوه!" قبل أن يستدير ليوجه له ضربة أخرى بذيله, ولكن "111" تفادى الضربة هذا المرة حينما أحنى رأسه ليمر الذيل من فوقه قبل أن ينهض سريعا ويلقى بجسده على "31" ويدفعه ليسقط كلاهما أرضا.

صرخت "52" وهي لا تدري ماذا عليها أن تفعل, ونهض كلاهما واستدار "31" مرة أخرى ليوجه ضربة جديدة له في الوقت نفسه الذي لف فيه "111" حول نفسه ضاربا بذيله هو الآخر ليتلاقى ذيلاهما وينعقد طرفيهما, لحظة واحدة نظر كلاهما للأخر بعدائية قبل أن يشد "111" ذيله وهو يدفع جسده إلى الخلف محاولا إسقاط "31" على وجهه, ولكن الأخير لم يتحرك من مكانه حتى, فلم يكن "111" بالقوة التي تمكنه من فعل ما يريد, أو لم يكن "31" بالضعف الذي يجعل هذا الأمر ينجح معه, وعلى الفور عكس "31" الحركة نفسها وجذب بكل قوته ذيله المعقود عند نهايته بذيل "111", شده ثم أفلت ذيله وهو يدفع "111" نحو شجرة ليرتطم بها ويسقط أرضا, وكانت الضربة بالقوة التي أبقت أرضا يتألم ما منح "31" الوقت ليتقدم بخطوات بطيئة

نحوه وينزل عليه بضربة أخرى من ذيله ثم ثانية فثالثة, كانت الضربات تتوالى على جسده كله وكأنه يجلد, و"111" يحاول أن يرفع يده ليغطي بها وجهه قبل أن يتمكن من الإمساك بذيل "31", وهنا جذبه ليسقطه أرضا هذه المرة, ولكن الأخير عاد لينهض سريعا, وبينما "111" ينهض هو الآخر, رفع "31" ذيله ليحيط به يد "111" وخصره وأخذ يعتصره, حاول "111" التخلص منه ولكنه كان قوى للغاية, كان يعتصره بكل غل وكره, حينما ألفت "52" بجسدها على جسد أخيها وهي تصرخ فيه أن يتركه, ولكنها عاد ليدفعها وهو يكيل بيده الأخرى لكمة في وجه "111", ومع اللكمة الثانية كان ذيل قوى يلتف على معصمه ليمنعه من تسديدها, وحينما استدار "31" ليرى من هذا القادم وجده أبيه, ومعه البروفيسور الذي تقدم وهو يجرى نحو "111" ويميل عليه ليخلصه, ولكن "31" كان يعتصره بقوة حقا, فصرخ فيه البروفيسور وهو يأمره "أتركه", ولم ينفذ "31" الأمر, كان يريد أن يتخلص منه ويتخلص معه من كل هذا الأمر حتى وإن كان سيدفع حياته ثمنا لذلك, ورأى البروفيسور ذلك في عينيه جليا, فنهض سريعا ليقف في وجهه ويعيد عليه الأمر ولكن كان أبيه أسبق وهو يأمر ابنه بكل حزم, "أتركه الآن".

وتركه "31", تركه ليسقط "111" منهار القوى بين يدي البروفيسور, وكان الجميع قد سمعوا صرخة "52" المدوية وتجمعوا على إثرها ووقفوا ليشاهدوا ما حدث, سند "153" صديقه وساعده على النهوض بينما تقدم البروفيسور نحو "31" وهو يحتد عليه "لن يمر هذا الأمر على خير, والآن لا أريدك في حفلاتي".

وتقدم الأب ليعتذر للبروفيسور ولكنه أدار ظهره وعاد ليطمئن على "111", وشعر الأب بالحرج فأمسك بذراع ابنه وهو يقول له "هيا بنا", ثم نظر إلى ابنته التي كانت لا تزال تقف حافية وهو يقول لها بهدوء "هيا بنا يا ابنتي", ولكنها أجابت وهي تبكي "سأبقى يا أبى", فصرخ فيها أخيها "نخبرك أن هيا بنا", فعنفه أبيه وهو يقول "دعها كما تشاء" قبل أن يدفعه نحو الخارج ويرحلا سويا.

كان الجميع قد رأى ما حدث, العيون نفسها التي يكرهها رآته ذليلاً, ما إن أستطاع "111" أن يتحرك حتى أسرع مغادراً دون أن يلتفت خلفه, قفز على دراجته وأسرع يخرج من الحفل, حاول "153" أن يمسك به دون جدوى, فقط نظر في عيني "52" وخرج دون أن ينطق أحدهما بكلمة لتندفع دموعها فتغمر وجهها في صمت.

كانت الإهانة بالغة بالنسبة له, قهره الإحساس بالضعف والعجز, أخذ ذيله يتحرك في عصبية على بدال الدراجة بينما سماعاته تغطي أذنه وقد رفع الصوت عالياً ليستمع إلى الموسيقى الصاخبة كأنه يريد أن يقتل كل الأصوات التي تدور في رأسه وصدره بهذه الموسيقى, ووقفت الدموع في عينيه رافضة أن تندفع.

وفجأة حطت يد على كتفه تحاول أن توقفه, وحينما التفت إلى جواره وجد "153" على دراجة أخرى فتوقف ونزع السماعات من على أذنه وهو يوقف الموسيقى, ليجد من بعده كلا من البروفيسور و "52", وقد وصل كلا منهما على دراجة والشارع خال تماماً في هذا الوقت من الليل.

"قلت لك كثيراً عليك أن تتوقف عن الاستماع إلى نفسك حتى تتمكن من سماع الآخرين, لقد أرهقت أصواتنا في النداء عليك ونحن نحاول اللحاق بك," قالها "153" وهو يربت على كتفه ضاحكاً فنظر إليهم وثلاثتهم يحيطون به دون أن ينطق بكلمة.

"أنا كبير يا ولدى على هذا السباق, لقد انقطعت أنفاسي".

قالها البروفيسور وهو ينزل من على دراجته ويبدو عليه الإعياء بالفعل بينما كانت "52" هي الأخرى على دراجتها تنظر إليه وتبتسم في حنان وقد فسد الميك أب الخاص بها جراء الدموع.

ووقف "111" صامتا فتقدم نحوه البروفيسور, وهو يضع يده على كتفه ويغنى:

"عليك أن تتوقف عن الاستماع إلى نفسك حتى تتمكن من سماع الآخرين"

فتقدمت "52" لتقف إلى جوار البروفيسور مغنية هي الأخرى:

"ومهما حدث فيكفينا إننا دوما معا".

ليظهر "153" من بينهما مبعدا كلاهما بكلتا يديه ومغنيا بصوته السيئ بدرجة أعلى:

"لا تكف يا صديقي عن الحلم".

ثم وضع كلا منهم يده على كتف الآخر وتمايل ثلاثتهم سويا يمنا ويسارا وهم يغنون:

"كشعاع الشمس في يوم غائم يعرف إنه قد لا يصل إلى الأرض, لكنه لن يكف عن البحث عن ثقب للمرور فأحدهم بانتظار الدفء".

واكتفى "111" بالابتسام, فعقد البروفيسور ساعديه أمام صدره ومط شفثيه قائلا "يبدو إننا في حاجة إلى بعض الموسيقى حتى يستجيب لنا ويتفاعل معنا", فقال "153" "وما حاجتنا للموسيقى؟", فقال البروفيسور وهو يرفع حاجبه هذه المرة تعجبا من السؤال "الموسيقى يا ولدي, الموسيقى, بهجة الروح ودوائها", ثم بدأ يتمايل بخصره وهو يدندن إيقاعا منتظما بينما أخذ يصفق بيديه, وضحك "153" وهو يلحق به مطلقا صغيرا على إيقاعه نفسه, وانضمت "52" إلى الأوركسترا الصغير وهي تتمايل بدورها وتصنع أصوات بفمها زادت اللحن جمالا لتتطلق أنغامهم الموسيقية التي لم يتمالك "111" نفسه أمامها فأنفجر ضاحكا, ليعودوا سويا للغناء وهم يرقصون, وكل اثنان من ثلاثتهم يشبكان ذراعيهما سويا ثم يلفان لفة واحدة, وبعدها يترك أحدهما ذراع الآخر ليشبكه بذراع الثالث ليدور معه دورة أخرى وهكذا, وهو يقف أمامهم ضاحكا:

"عليك أن تتوقف عن الاستماع إلى نفسك حتى تتمكن من سماع الآخرين",

"ومهما حدث فيكفينا إننا دوما معا",

"لا تكف يا صديقي عن الحلم",

"كشعاع الشمس في يوم غائم يعرف إنه قد لا يصل إلى الأرض, لكنه لن يكف عن البحث عن ثقب للمرور فأحدهم بانتظار الدفء".

وتقدم البروفيسور ليقف أمامه مباشرة وهو يغنى:

"لست وحدك فأنا معك".

ثم تبعه "153" ليقف أمام البروفيسور في صفا واحدا ويغنى فاتحا ذراعيه:

"لست وحدك فأنا معك".

قبل أن تتقدمهم "52" وهي تنظر في عينيه, بينما يضغط البروفيسور رأس "153" الكبيرة من المنتصف لتتحول إلى شكل قلب, وتمسك هي بيد "111" وتهمس:

"لست وحدك, فأنا معك".

وضحك "111" وأحتضنها فقفز نحوهما "153" ودفعهما ليسقطوا جميعا أرضا قبل أن يستلقوا على ظهورهم، وتحرك البروفيسور ليستلق إلى جوارهم وجميعهم ينظر إلى السماء، ويد "111" تمسك بيد "52" وهي تنظر لعينييه وتتمتم بشفتيها "لست وحدك فأنا معك".

في الصباح كان الأب يجلس بمكتب البروفيسور الزجاجي وقد جلس الأخير خلف مكتبه في معطفه الطبي الأبيض، بينما وقف "31" أمامه كما يقف طالب مذنب أمام معلمه.

كان الأب يحاول أن يقدم الكثير من الاعتذارات ولكن جميعها لم تكن مقبولة بالنسبة للبروفيسور، الذي كان يتجول بنظراته بين الأب و "31" دون أن ينطق كلمة واحدة حتى انتهى الأب من كلامه وانتظر ما سيقوله البروفيسور.

تركهم البروفيسور ليفعل بهما صمته التأثير الذي يريده تماما، فهو يعلم جيدا أن الهدوء عند الغضب مخيف أكثر من الانفعال، وكان هذا ما يريده، أو ما يتمناه، أن يتسلل الخوف إلى قلب "31"، ولكن لم يكن له ما أراد.

قام من على كرسيه وتحرك باتجاه "31"، الذي كان لا يزال على وقفته العسكرية، ثم قال بهدوء: "إذا كان هذا ما فعلته في بيتي، وفي وجودي، ترى ما عساك أن تفعل في غيابي؟، هل ستقتله؟"

ولم يجب "31", كان يعلم أن البروفيسور لم يسأل السؤال ليحصل على إجابة, فأسرع الأب ليتدخل:

"لقد أستفزه فقط ما رأى, وأنت تعلم إنه يحب أخته كثيرا".

"بل يحب نفسه, أخته ليست صغيرة, ويمكنها أن تتحمل جيدا نتائج اختياراتها".

وهنا نطق "31":

"اختياراتها ستجلب علينا العار".

نطقها بكل جمود دون أن يتحرك من مكانه أو يلتفت, فتحرك البروفيسور ليقف أمامه تماما:
"كنت أعلم إنك لم تأت إلى هنا نادما على ما فعلت".

"لو أتيت لي الفرصة لفعلت الأمر نفسه في كل مرة رأيته يقترب فيها منها بل وفعلت ما هو أكثر من ذلك".

قالها ليطأطيء بعدها البروفيسور رأسه وقد أيقن استحالة النقاش مع "31" فقال له "انصرف, لا حاجة لي بوجودك هنا".

كان الأب مصدوما فلم يكن هذا ما أتفق عليه مع ابنه ليقوله, لقد لقنه أن عليه أن يبدي أسفه ويعتذر ويتعهد ألا يحدث مثل هذا الأمر مرة أخرى, ولكن ضاع كل ما قاله الأب لأبنه هباء.

انصرف "31", وعاد البروفيسور إلى مكتبه, وهو يهز رأسه أسفا, فأسرع الأب ليقدم اعتذارا آخر إلى البروفيسور, فقام الأخير من على كرسيه منفلا هذه المرة وهو يميل بجسده على صديقه الأب ويقول بصوت منخفض ضغط معه على كل حروف جملة التي خرجت منه بمنتهى العصبية رغم محاولته للسيطرة على هذه العصبية:

"من تظن أنك تخدم؟, أتحاول إيهامي بأنك لست راض عما فعله ابنك؟, أنتخيل اللحظة أنني سأصدق هذا الهراء؟, أجبن بكل صراحة, ماذا ستفعلون به بعد رحيلي؟, هل ستشارك ابنك حماقاته وأنت الرجل الدبلوماسي الذي يعرف جيدا كيف يحل مشكلاته دون أن يخرج يده من جيبه؟, لو كنت مكانك لكنت أول من يسعى أن يمنع هذا الولد عن ارتكاب تلك الحماقات, فهو سيخسر نفسه حين سيرضها للمساءلة القانونية من ناحية, وسيخسر أخته من ناحية أخرى, وستخسر أنت كليهما, أتعي ذلك؟, ستخسر كليهما".

وكان كلام البروفيسور قاسيا, وكان الأب يعرف مسبقا كل ما قيل جيدا, فهذا ما يجول بخاطره ويفكر فيه بكل خوف في كل وقت, ولكنه لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل, تخلص عن دبلوماسيته وهو يرجو البروفيسور:

"حل كل هذا في يدك أنت, أنت الوحيد القادر على إقناعهما بأن ما يفعلانه لن يقبله المجتمع بأي شكل, هما يحبانك كثيرا وسيستمعان لك".

وهنا ذهل البروفيسور وهو يقول "أهذا هو الحل الذي تراه؟، تريدني أن أطلب منها أن يفترقا وتظن أنهما سيسمعان لنصيحتي!، هذا بدلا من أن تأمر أبنك بالتراجع!"
"لن يتراجع، لن يتراجع، وهذا ما يخيفني".

قالها الأب وهو أقرب إلى الانهيار فحاول البروفيسور ألا يبدو قاسيا أكثر من ذلك، قام من مكانه مرة أخرى وأتجه نحو صديقه وجلس أمامه وهو يربت على كتفه ويقول "وهل إن تراجع هو، ستتراجع أنت؟، أنت أيضا تريد أن تقصيه عن طريقها ولكنك تبحث عن طريقة أكثر دبلوماسية، طريقة لا تؤذي أحدا من أبنائك".

خفض الأب رأسه وهو لا يجد ما يجيب به البروفيسور فأكمل الأخير "إذا كنت حقا تريده أن يتراجع وتريد أن تحافظ على كليهما فلدى الحل".

رفع الأب رأسه مرة أخرى لينظر في عيني البروفيسور بكل انتباه وقد نجح في أن يستحوذ على انتباهه فأكمل البروفيسور "بشرط أن تعدني أن تكون أنت أول من يسعى لتنفيذ هذا الحل معي، حتى نتفادى كارثة أكبر كثيرا من مشكلة هذا المجتمع الذي تخشاه".

نظر الأب إلى البروفيسور وهو ينتظر أن يخبره الثاني عن الحل الذي توصل إليه، ويتمنى أن يكون بالفعل حلا يرضى الجميع، أو على الأقل يجعلهم يتفادون أي مشكلات مقبلة.

لم يأت "111" إلى العمل في هذا اليوم، بل لم يغادر فراشه، كان الجرح علي وجنته إثر صفة "31" قد ترك أثرا بنفسه أكثر مما فعل بوجهه، قام متكاسلا إلى المرأة ليتحسس هذا الجرح، قبل أن يلتقط زجاجة عطر ويقذف بها بكل قوة ليحطم المرأة، ويحطم معها صورته التي يراها، ولكن

بدلاً من أن تختفي الصورة، تحطمت الصورة الواحدة إلى صور كثيرة مع القطع التي تناثرت، أصبحت الصورة التي يهرب منها عشرات الصور الصغيرة، ولكنها كانت أكثر واقعية بالنسبة إليه، إنه لا يزيد عن هذا الحجم، صغيراً لا يقوى على الدفاع عن نفسه، وفي الوقت الذي فرت فيه دمة وحيدة من عينه دق جرس الباب، أسرع يمسح عينه ثم تحرك نحو الباب بقدر ما سمح له جسده المتعب نتيجة قتال الليلة الماضية والذي لم يتعاف منه بعد.

وما إن فتح الباب حتى وجدها أمامه ومن خلفها البروفيسور وصديقه ذو الشعر البرتقالي "153" الذي كان كعادته ضاحكاً، مدت يدها لتسلم عليه بينما يحمل وجهها تلك الابتسامة التي تزيل من همومه الكثير، ولكنه لم يستطع أن يرفع عينه في عينيها بعد أن فشل في الدفاع عن نفسه وعنهما أمام هاتين العينين.

"ألن تدعونا للدخول، بالطبع لم تتناول طعامك بعد لذا فقد قررنا أن ندعو أنفسنا لتناوله معك خاصة مع تلك الأخبار الجيدة التي أحملها إليك".

قالها البروفيسور وهو يذلف إلى الداخل دافعا إياه بيده ودافعا باليد الأخرى "52" ليحثها على الدخول، ومن خلفهم دخل "153"، فأغلق "111" الباب وهو يسأل:

"أية أخبار؟"

فأسرع البروفيسور يقول، "لماذا أغلقت الباب؟، هناك ضيف بالخارج ولكن عليك أن تدعوه للدخول بنفسك".

تعجب "111" وهو يعود إلى الباب ويفتحه لينظر خارجاً ويتساءل "أي ضيف؟"

وبالباب كان أبيها، ولم يصدق "111"، أفسح جانباً وهو يقول بحزن "تفضل يا سيدي"، خرجت حزينة ظناً منه إنه أتى ليعتذر له.

كان البروفيسور قد جلس على الطاولة الدائرية وإلى جواره "52" وإلى جوارها "153"، فدعا البروفيسور أبيها للجلوس إلى جواره من الجهة الأخرى وتبعهم "111" ليجلس على المقعد المتبقي بين الأب وبين "153" في مواجهة البروفيسور.

"لم يكن بإمكانني أن أرحل دون أن أطمئن عليكما" قالها البروفيسور بكل حنان وهو ينظر إليه قبل أن يكمل:

"كما تعلمان فأنا لم أتزوج وليس لي أولاد، وإن كان لي أولاد فلم أكن لأحبهما مثلاً أحبكما، ولذا فقد توصلت إلى حل يضمن سلامة الجميع".

كانت وجنتا "52" متوردتين من السعادة بينما "111" يستمع منتبها ومتعجباً فهو لا يفهم أي شيء، فأكمل البروفيسور:

"صديقي كأي أب لا يريد سوى سعادة ابنته، ويهمه ألا يتورط ابنه في أية حماقة يضيع معها مستقبله، ولذا"،

ثم نظر في عيونهم أولا قبل أن يكمل "لا بديل عن رحيلكما".

سأل "111" متعجبا "رحيلنا؟"

"نعم" أجاب البروفيسور.

"إلى أين؟" عاد "111" ليسأل.

"إلى أية مدينة أخرى بعيدا, ستختفون بين الملايين الذين يحيون هناك, لي أصدقاء سيدبرون لكل منكما عملا, بالطبع لن يكون بمكانة عملكما هنا حتى لا يسهل العثور عليكما ولكنه عمل سيكفيكما مؤنة العيش".

نظر "111" إلى أبيها كأنه لا يصدق أنه يجلس بينهما ويستمع إلى هذا الكلام ويوافق عليه, قبل أن يعاود النظر إليها وكانت ملامحها تشع سعادة, لم ينطق بكلمة فسأله البروفيسور "لقد ظننت أن هذا الخبر سيسعدك!"

كان "111" يبدو عليه الارتباك فهو لم يستوعب ما يحدث بعد فقال:

"أسعد بالهروب؟, بأني سأخذها بعيدا عن عالمها وعن أسرتها وعملها لتعيش حياة لم تعتد عليها؟, أظننها ستكون سعيدة بذلك؟ وحتى إن كانت سعيدة فكيف لي أن أكون سعيدا وأنا سأشعر كل يوم أنى حرمتها من كل ما تحب؟"

"أنت كل ما أحب".

لا تعرف "52" نفسها كيف اندفعت الجملة منها في وجود أبيها, فأبتسم البروفيسور بينما نظر أبيها لها فقط ولم ينطق بكلمة, وزادت وجنتاها احمرارا لما نطقت به توا.

"كن عاقلا ودعك من العواطف, لا حل أمن للجميع سوى هذا" قال البروفيسور فأسرع "111" يقول:

"أتريد منى أن ألحق العار بالرجل الذي دخل بيتي ويجلس معي وتدعو هذا عقلا يا سيدي؟"

"العار سيلحق بي على أي حال, إن بقيتما فسيقتلك "31" وسأخسر ولدى, فعار أهون من عار, وهناك أشياء كثيرة يمكنني أن أدعيها حين ترحلون".

قالها الأب وهو ينظر إليه نظرة لم يعرف "111" إن كان يحملها بها مسؤولية هذا الوضع الذي وصلوا إليه أم إنه يتعاطف بها معه قبل أن يعود الأب ويكمل:

"إلا إذا كان باستطاعتك الابتعاد عنها وتجنيبنا كل هذا؟"

وهنا نظرت "52" إليه في انتظار إجابته, ولم يكن يدرى ماذا عليه أن يقول؟

"هل تريد ذلك؟" سأله "52" فأجاب على الفور:

"تعلمين أنى لا أستطيع ذلك".

قالها مستسلما فتنهد البروفيسور وهو يقول:

"إذا لا مفر سوى هذا الحل, عليك أن تستعد ولا تخبر أي أحد بما ننوي فعله, وبعد رحيلكما إياك أن تخبر أحد عن مكانك إلا بعد أن يمر وقت طويل وللمقربين فقط, حتى ذو الرأس الكبيرة هذا لا تخبره" قالها البروفيسور مازحا فأبتسم "111" قبل أن يكمل البروفيسور:

"سأرتب كل شيء, إجراءات الزواج ستنم قبيل رحيلكما, أنتما تعلمان أني قد أرحل في أي وقت, ولذا لا أريد أن أرحل إلا وأن مطمئن عليكما يا ولداي, وإذا لم يمنحني الوقت ما يكفي للانتهاء من كل شيء فصديقي قد وعدني ضمن لي إنه سينيها بنفسه وسيضمن لكما أمانكما هناك, أليس كذلك يا صديقي؟"

نظر إلى الأب الذي كان قد شبك يديه على الطاولة منذ بداية الاجتماع ورأسه منخفضة وعينه أرضا, فلم يجب, فعاد ليسأله بصوت أعلى:

"أليس كذلك يا صديقي؟"

"بلى يا صديقي", قالها مستسلما هو الآخر, وهنا قامت "52" من مكانها وارتمت في حضن أبيها الذي لمعت عيناه بالدموع دون أن يبكي, ليعود إليها هذا الشعور الذي فقدته منذ وقت طويل, وتشعر بأن ذراعا أبيها لا زالا قادرين على احتوائها, وإنها لا زالت صغيرة بينهما كأنها لم تكبر أبدا, وضع يده على شعرها ثم قبل جبينها وأبتسم لها دون أن ينطق بأي شيء.

"إذا هيا, فلتحضروا لنا الطعام وليكن هذا الطعام الذي سنتناوله سويا شاهدا علينا, لنحتفل فنحن نستحق السعادة", قالها وهو يخرج زجاجة نبيذ من حقيبتة ويضعها بوسط الطاولة بينما كان "153" أول من تحرك لإحضار الكؤوس, وقامت "52" إلى المطبخ لإعداد الطعام, كانوا يحاولون إضفاء السعادة على هذا الخبر ولكن ثمة شيء كان مفقودا, بين أبيها وبين حبيبها.

"هيا يا ولدي قم معها وساعدها", قالها البروفيسور ضاحكا, وما أن قام "111" حتى أمسك البروفيسور بيد صديقه وهو يقول يهمس له:

"لقد وعدتني".

فأجابه الأب "لا تقلق".

"أشكرك, ستعرف يوما إنك فعلت الصواب".

قالها البروفيسور وهو يربت على يد صديقه, بينما لحق "111" بـ "52" في المطبخ, حيث كانت تعد الأطباق فوقفت وقد أدارت ظهرها له, وما أن أمسك بيدها حتى استدارت ليقف أمامها مباشرة وهو ينظر في عينيها ويسألها:

"أحقا تريدان ذلك؟"

"بالطبع".

"ألا سبيل آخر لإقناع أخيك؟, لقد استطعنا إقناع أبيك فلما لا نحاول معه؟"

"البروفيسور نفسه قال بعد اجتماعه معه اليوم إنه ينوى شرا ولا سبيل إلى ذلك, ولذا فعلينا الإسراع قبل أن يرتب لشيء, لا تخف سنكون معا, وهذا يكفيني".
قالتها وهي تبتسم فاحتضنها, احتضنها وهو يقول " ويكفيني أنا أيضا".

عند المغيب, وعلى الشاطئ, استلقى كلا منهما على ظهره إلى جوار الآخر, لا صوت سوى صوت انكسار الأمواج, والأشجار الخضراء تبدو من بعيد كأنها تعزلهما بمنأى عن عالمهم كله. كان هذا هو مكانهما السري, ففي عالم لا يمكن فيه لعاشقان أن يتسكعا بالطرقات, أو أن تتأبطه بالشارع, ولا يمكنها أن تذهب إلى بيته وحدها, كان عليهما أن يجدا مكانا سريا لا تتبععهما فيه العيون, وإلا فكيف لهما أن يحبا إذا لم يمارسا تلك الأشياء الصغيرة؟, وللحق, فقد وجدا في اختلاس كل هذه الأشياء متعة أكبر مما لو كانا مارساها علانية, فالخوف لا يفسد المتعة بقدر ما يضيف إليها أثارة لا تنسي, ليصبح الأمر كله مثيرا للضحك, وهذا ما يجعل للحظات المسروقة قصصا خالدة لا تنسي أبدا.

حركت "52" ذيلها ليداعب ذيل "111" الذي لم ينطق بكلمة بواحدة منذ حضورهما, كان شاردا, لفت طرف ذيلها على طرف ذيله لترفعه قبل أن تشكلهما في الهواء على شكل قلب, وابتسم لدعابتها فقالت:

"أخيرا حصلت على ابتسامة".

سحب ذيله ثم حرك طرفه على وجنتها يداعبها بدوره دون أن يتحدث, فأمسكت بذيله واحتضنته بين كفها ووجهها واستدارت على جانبها لتكون مواجهة له وهي تسأله "ماذا بك؟"

تنهد قبل أن يجيبها "حزين فقط لفراق البروفيسور لا أتخيل إنه لن يعود بيننا قريباً".

"أحزنك على فراقه أكبر من سعادتك لما وصلنا إليه؟, سنكون معاً".

عاد لتنهيداته فقد كان يخشى عليها أن يحدثها عن مخاوفه, ولكنه لم يجد مفر فاستدار بدوره وقال "لست مطمئناً يا حبيبتي, لست مطمئناً, ثمة شيء يدفعني للقلق, وجود البروفيسور كان سيعنى لي أمناً أكثر, كما أن الطريقة نفسها التي سنكون بها سوياً.."

قاطعتة قائلة "لا تعود إلى هذا الحديث أرجوك, فيكفين أن نكون معاً, يكفيني هذا".

ابتسم لها وهو يعود لمداعبة وجنتها بطرف ذيله وينظر عميقاً في عينيها, فاحمرت هذه الوجنة خجلاً من نظراته, وأقرب برأسه ليقبلها, فخفضت عينيها على الفور, وبينما يقترب, كان دوى الصفارات ينطلق في المدينة كلها, التفتوا في نفس اللحظة خلفهم, ومن بعيد كانت المدينة كلها تضاء بأضواء حمراء متقطعة, أضواء وصفارات يعرفون معناها جيداً, إنه استنفار عام, استنفار يعنى أنهم على وشك أن يشهدوا قذف.

كانت المدينة البيضاء كلها في حركة لا تتوقف, انطلقت سيارات الإسعاف والشرطة لتأمين الطريق, بينما عند كل باب كانت هناك أسرة تودع أحد أفرادها, يقبلونه ويحتضنونه وهم يحمسونه ويتمنون له الخلود, وما أن ينتهي من مراسم توديع صغيرهم وكبيرهم حتى يستقل إحدى السيارات المنتظرة والتي تملأ الشوارع محملة بأخرين من أمثاله الذين عليهم الدور للخروج في هذا القذف, كل شيء كان يتم سريعا.

وهناك عند بيت أينشتاين كان "52" و "111" أول الواصلين, ما أن انطلقت صفارات الإنذار حتى أسرعوا إلى بيته, كان البروفيسور متأنقا يرتدى حلتاه, احتضنته "52" طويلا وهي تقول "لن أنسى لك كل ما فعلته من أجلنا يا سيدي" أبتمس البروفيسور وهو يربت على ظهرها قبل أن يتقدم "111" ويحتضنه بدوره, ضمه بقوة وهو يخبره " سأفتقدك كثيرا يا سيدي", فأجابه وهو يمزح "رفقا بي يا ولدي فأنا لست في قوتك, قبل أن يحيط وجهه بكلا كفيه وهو يكمل " وأنت تعلم أنني سأفتقدك كثيرا, تعلم ماذا تعني لي, أنت ولدي الذي لم أنجبه يا "111".

وظل "111" بين ذراعيه لا يريد أن يغادرهما, كان كل ما يحدث لا يعني له أي شيء على الإطلاق سوى إنه سيفقد أبيه, ربما يودع الجميع ذويهم بالبسمات وبالتمنيات بالتوفيق ولكن "111" لا يؤمن بأي مما يحدث, ربما لأنه مشوه ولا يمكن له أن يستوعب مفاهيم كالمجد والخلود التي يتحدثون عنها, كل ما يعرفه أن هذا الوداع يؤلمه بشدة, وهل هناك وداع لا يؤلم؟, يقولون إنه الوداع إلى المجد, ليته يمكنه أن يشعر به كما يشعرون الآن.

وأطلق صوت من الخلف ضاحكا عاليا لينتزعهم مما هم فيه "تري هل ستفعلها هذه المرة أم ستحتاج إلى مساعدة؟, لا مانع لدى أن أحملك حتى الوصول, فقط خذني معك".

التفتوا جميعا فكان "153" واقفا عند الباب بشعره البرتقالي ورأسه الكبير, فتح البروفيسور ذراعيه فجري "153" وأرتمي بين ذراعي البروفيسور قبل أن تندفع دموعه منهمة من عينيه, فأسرع يمسحها بطرف ذيله بينما يداه لا زالتا تحتضنان البروفيسور الذي قهقه قائلا " أنت تبكي؟, هل ما أراه حقيقيا؟", فضحك "153" ضحكة عالية حاول أن يجعلها تلقائية بينما لا زالت دموعه منهمة وهو يقول " لتعلم إنك إذا لم تصب مجد الخلود اليوم فيكيفيك فخرا إنك جعلت "153" يبكي".

عاد البروفيسور لاحتضانه وهو يقول له "لا, لم أعرف عنك يوما البكاء, ولا أحب أن أعرفه عنك, استمر في الضحك, حتى حينما تتألم أضحك, الضحك فعل وقح, صوته عال, دائما ما يزعج الآخرين, فعل متمرّد, ولذا فالضحكات تليق أكثر بالثائرين الرافضين, أما البكاء فهو فعل هادئ, أصم لا يزعجه ضجيج العالم, وأبكم لا يزعج أحد, كأن تسير حافيا على رمال الشاطئ وحيدا, فلا يصدر عنك أي صوت, على عكس الضحك, فالضحكون يقفزون", وأبتمس "153" لكلمات لبروفيسور, في الوقت الذي وصل فيه أحد المسؤولين عند الباب, وتحنح قبل أن يقول "لقد أن الأوان يا بروفيسور".

نظر ثلاثتهم إليه قبل أن يندفعوا نحوه ليضمهم جميعا, ثم تحرك إلى الخارج تاركا إياهم خلفه, أخذت دموع "52" هي الأخرى تنهمر في صمت فأحتضنها "111" واضعا ذراعه على كتفها

وثلاثتهم يتبعونه, وبالخارج كان كل مسؤولي المدينة ينتظرونه لتوديعه, رجال الشرطة على الصفين وسيارة بانتظاره لتقله وحده, والكثير من فلاشات الكاميرات والمصورين الذين يلتقطون صوراً للحدث الأهم, وحينما وصل البروفيسور عند والد "52" توقف وربت على كتفه وهو يبتسم كأنه يذكره بوعده, فأبتسم صديقه بدوره وهو يومئ برأسه مطمئناً إياه, وأستقل البروفيسور سيارته ولوح لهم من خلف زجاجة بينما تنطلق السيارة, ومعها قلوب ثلاثتهم تكاد أن تنخلع.

11

بمركز التجمع كانت الشاشات كلها تنقل فيديو إرشادياً للعضو التناسلي الأنثوي من الداخل, والأسهم توضح الطريق الذي سيتحركون فيه والميكروفونات كلها تنقل صوتاً ألياً يشرح ما عليهم فعله.

"عزيزتي الحيوانات المنوية, لا تنسوا, ما أن تصلوا حتى سيكون عليكم قطع المسافة كلها سيرا على الأقدام, ستسيرون لمسافات طويلة قبل الوصول إلى مفترق طريقين, وهناك ستتنقسمون إلى فريقين وسيتبع كل حيوان منوي منكم قائده, نذكركم إنه في الغالب لن تجدوا سوى بوابة واحدة للعبور, وهذا يعنى أن فريق واحد من يصل, بينما يكون الطريق الآخر فارغاً تماماً من أي شيء, الفريق الذي سيصل إلى البوابة عليه إتباع تعليمات قائده في محاولات العبور, نذكركم أيضاً أن حيواناً منوياً واحداً من سيتمكن من العبور, ننتظر منكم الكثير من النظام و الشجاعة, ونتمنى لكل التوفيق".

أخذت هذه الرسالة تعاد مع الصور, والأضواء والصفارات لا زالت تنطلق في المدينة كلها, وأمام مركز التجمع كان الحضور غفيراً, وبالدخل كانوا جميعهم مصطفين أمام بوابة أخرى صغيرة والتي منها سيتحركون استعداداً للانطلاق, وعند باب هذه البوابة رجلين عسكريين يقومان بتسليم كل متقدم خوذة زجاجية متصلة بأنبوب للتنفس يحكم إغلاقها على رأسه وتعليق الأنبوب على جانبيه وهما يذكران الجميع بأن بدون هذه الأدوات لن يستطيعوا المقاومة كثيراً في الرحلة, وهذا بالإضافة إلى حقيبة ظهر بها كل أدوات المعونة الأساسية التي سيحتاجونها هناك من طعام وشراب للطريق وبعض الأدوات الأخرى بما فيها سلاح يختارونه بأنفسهم, وكان هناك

رجلا آخر يقف بعدهما بخطوات ليتأكد من صحة إغلاق كل حيوان منوي لخودته ويقوم بالعد وتسجيل رقم الحيوان المنوي على لوح الكتروني بيده.

وعند المرور من هذه البوابة الصغيرة، كان المشهد مهيب، أنبوب طويل ينتهي بالفتحة التي سيخرجون منها لبدء مهمتهم، وفي مشهد من أعلى كان يمكن لأي أحد أن يرى الملايين يصطفون وهم يهتفون ويغنون على أنغام الفرقة الموسيقية التي تصطحبهم خصيصا لعزف الألحان الحماسية، والكاميرات المصاحبة تصور كل ما يحدث وتنقله لكل من بالمدينة على شاشات عرض كبيرة قد ملأت الشوارع والميادين.

وعند أول الأنبوب هناك كان أينشتاين واقفا، يرتدى خوذته بدوره وينتظر الأمر، وبعد دقائق فقط، انطلقت صفارة إنذار وأضواء حمراء داخل الأنبوب، والباب الإلكتروني للبوابة التي دخلوا منها يغلق خلفهم، صمتوا جميعا وهم ينظرون أمامهم قبل أن تتحول الأضواء الحمراء إلى صفراء وقلوبهم تدق بسرعة بالغة، وهنا نظر إليهم أينشتاين وهو يرفع سيفه ويقول "استعدوا" ليخرج صوته عبر مكبر صوت داخل خوذته.

واستدار نحو الفتحة التي كان يتسلل منها نورا يأتي من الخارج، وقف أينشتاين على حافة الفتحة وطل برأسه منها، قبل أن يشهق رعبا مما رأى.

[illegible]

وبينما يسقط باتجاه الفم المفتوح، استلقي على ظهره تماما في الهواء وشبك كفيه خلف رأسه وهو يهزها يمنة ويسارا بكل استياء و يتمتم، "عاهرة".

قبل أن يسقطوا جميعا على اللسان وداخل الفم الذي أغلق عليهم وأبتلعهم جميعا، وأمام الكاميرات كانوا بالمدينة قد رأوا كل ما حدث، وأصابتهم خيبة كبيرة، فقد ضاع أينشتاين آخر.

جلس ثلاثتهم على صخرة قبالة البحر, يتوسطهم "111" وهي إلى يمينه وصديقه "153" إلى يساره, كان قد أمسك ببضعة حصوات أخذ يلقى بها في الماء الساكن واحدة تلو الأخرى لتصنع تلك الدوامات الصغيرة التي ما تلبث أن تختفي مرة أخرى, بينما غلفهم الصمت تماما بعد فراقهم للبروفيسور, وفجأة وبكل هدوء تحدث "111", دون أن يلتفت إليهم, حديث أقرب إلى أن يكون إلى نفسه:

"لست أدرى لما يحدث لنا كل هذا؟, لما علينا الهروب حتى نكون معا؟, لما عليهم أن يقسمونا إلى طبقات وعائلات لكل منها مزايا تختلف عن الأخرى حتى إذا وصلنا إلى آخر القائمة كنا نحن محل السخرية المضطهدين دائما".

ثم ألقى بحصاة أخرى وهو يسأل "هل تظنان أن في العالم الآخر سيتم تقسيمنا هكذا أيضا بمثل هذه العنصرية؟"

فأسرعت تجيب "بالطبع لا, هناك كلنا سواسية, هناك لا أحقاد ولا شر ولا هروب, إنها الجنة فقط, النعيم الدائم".

استلقي "153" على ظهره وهو ينظر إلى السماء ويقول "كنت أتمنى أن يكون البروفيسور قد وصل الآن, كنت أتمنى أن يفعلها ويعبر إلى الخلود".

فقال "111" كأنه لم يسمع سؤاله "ما يحيرني دائما هو: لما لا يمكن سوى لواحد فقط أن يعبر من بين كل هذه الملايين؟"

فألقت كلاهما إليه وسألته "52", "ماذا تعنى؟"

فقام من مكانه و وقف قبالتهم وهو يشرح "أي إذا كان هناك دائما واحد يعبر ويصيب الخلود, فإلى أين تذهب البقية؟, كل هذه الملايين التي تموت ليصل واحد فقط منها, ما مصيرها بعد الموت؟, أيعقل أن تكون هذه هي النهاية؟, واحد يخلد والباقي ينتهون هكذا؟"

أربكهما منطقته فنظر كلاهما إلى بعضهما البعض وعادا ينظران إليه كأنه يكشف أمامهما شيئا لم يلتقيا إليه من قبل فعاد ليكمل "إذا كان هناك عالم آخر نعبر إليه وحياة نخلد فيها لا موت بعدها ولا ظلم ولا عمل, جنة فقط فيها الجميع سواسية لا عائلة (A) ولا عائلة (B), أيعقل أن يكون كل هذا لمن يعبر فقط؟, لأن بهذا المنطق فهذا يعنى أن أمثالي وكل من يتبع العائلة (F) لا أمل لنا في حياة كريمة سواء هنا أو هناك, فنحن لا قدرة لدينا على العبور حتى يمكننا الانتقال إلى هذا العالم".

قالها وعاد ليجلس وهو يقول "أيعقل أن نكون قد خلقنا لنحيا حياتنا كلها هكذا بلا هدف, أن أموت في رحلة لا أمل لي أن أحقق فيها شيئا, ثم فقط أتلاشي, أخنقي كأني لم أكن يوما موجودا قط, لماذا خلقت إذا؟, لماذا؟"

وهنا نظر إليه صديقه مذهولا بما يسمع وهو يقول "أيعقل أن نكون نحن أيضا خالدين بطريقة ما؟, إذا كان من غير المعقول أن نكون قد خلقنا عبثا فهذا يعنى أن ثمة حياة أخرى لنا نحن أيضا لا نكون فيها مشوهين".

قالها وهو يقوم فرحا فمثل هذا الأمر لم يطرأ على باله من قبل وهو يدور حول نفسه ويغنى " أنا خالد، أنا خالد، أنا خالد".

فعاد "111" ليقول، أو أن تكون هذه هي الحقيقة، ويكون كل ما علمونا إياه منذ الصغر ونعيش من أجله وهم، ولا شيء يحدث بعد العبور، فلم يعد واحد فقط ممن عبروا ليخبرنا ماذا يحدث بعد العبور؟، أو كيف هو هذا العالم الآخر؟

كانت تشفق عليه من الأفكار المتلاحقة التي تعج بها رأسه، والمنطقية التي يتحدث بها إلى حد قد يدفع إلى الجنون، بينما توقف "153" عن غنائه ورقصه وجلس مرة أخرى لا يفهم شيء، وقال " إذا أنحن خالدين أم لا؟"

أجابه "111": "إذا كان هناك عالم آخر أكثر عدلا فلا يعقل أن يكون ظالما في عدله إلى هذا الحد، واحد فقط من ملايين يمكنه أن ينعم بهذا العدل، وملايين أخرى منا لا فرصة لديها لتتعم به، وهذا بالنسبة إلى لا يعنى سوى شيء واحد".

نظرا كلاهما إليه في وقت واحد بكل فضول ولكنه لم يكمل، فقط تحرك نحو زجاجة ماء فارغة وألقت بها وتقدم نحو الشاطئ وملأها بماء البحر، ثم وقف أمامهم ينظر إلى الزجاجة مسترسلا:

"أذكر المرة الأولى التي ملئت فيها زجاجة بمياه البحر، ثم جريت مندهشا نحو أبى أسأله: أين ذهب اللون الأزرق؟، يومها عرفت أن البحر مخادعا، البحر ليس أزرق، ولكني أحبه، ولذا فكان علي أن أصدق خدعته، ولا زلت أصدق الخدعة، لا زلت أكتب عن زرقته ولا أرسمه في أوراقى سوى أزرقا، وهكذا هم الحالمون، مغفلون، لا يمكننا أن نفرض عليهم ما نراه نحن، ولن نفهم لما لا يكفون عن الحديث عن زرقه البحر وجماله، بكل بساطة لأننا لا نستطيع أن نذهب إليهم ونخبرهم أن ما يرونه وما يؤمنون به وهم، لا يمكن لأحد أن يطعن في ثوابت الآخرين وينتظر أن يصدقوه بهذه السهولة، هم في حاجة لأن يصدقوا ما يؤمنوا به لأنه ما يجعل لحياتهم هدف، حتى وإن كان ما يصدقون فيه مجهولا، حتى وإن لم يكن لدينا دليلا واحدا على صحته، سيظلون يرون وهمهم أزرق، كلنا نحب اللون الأزرق لأنه لون الأوهام، ونحن نحب الأوهام".

صمت لثوان لينظر إليهما وقد فتح كل منهما فمه ذهولا مما يسمع، فقال:

"ولكن بالنسبة لي، ولأن حقي في أن يكون لي وهم مثلهم أو من به وأشاركم التصديق فيه تم انتزاعه مني، فهذا يعنى أن لا فرصة مؤكدة وحقيقية لدينا سوى في هذا العالم".

نظر إليها وأكمل "لا فرصة لأن أكون معك سوى هنا".

ثم نظر إلى صديقه "ولا فرصة لأن نفوز باحترام الجميع وأن يكون لنا مكانتنا وألا يضطهدونا ويسخروا منا هكذا بهذا الشكل إلا هنا، ولكن الأمر في حاجة إلى مواجهة، مواجهة أخيك ومواجهة هذا النظام الظالم، الأمر في حاجة إلى ثورة نخرج فيها لنطالب فقط بأقل حقوقنا، فنحن لم نختر أن نكون مشوهين، لم نختر ذلك".

خرجت جملته الأخيرة عصبية فأسرعت تمسك بيده وهى تخبره أن يهدأ.

قالت "هل ستنتظر حتى يحدث ذلك؟"

عاد ليستلقي على ظهره وهو يغمض عينه ويتمتم:

"هذا يحتاج إلى وقت طويل جدا لا نملكه, أنا فقط متعب, أنا حزين, ثمة إحساس بالأمان والدفء كنت أشعر به في وجود البروفيسور وذهب اليوم معه, أنا الآن عاري تماما".

وهربت دمعة من عينه المغمضة, ودت لو تمد طرف ذيلها وتمسحها له وتحتضنه بقوة وتقبله, ولكنها كانت تعلم أن هذا سيكون مهينا له ومحرجا لها في وجود "153", عاد ليعتدل في جلسته وهو يضحك ويمسح عينه ويقول "لقد أصبح الطقس باردا حتى أن عيني تحسست".

ثم قام و وقف على قدميه وهو ينظر إليهما ويقول
"دعونا من كل هذا العبث, المهم, إنني الآن حزين, حزين وجائع".

قام "153" هو الآخر وهو يتحسس بطنه ويقول "مرحى, هذا هو صديقي, أنا أيضا حزين وجائع".

وضحكت "52" وهي تقوم بدورها وتقول بصوت عال أقرب إلى الصراخ "وأنا حزينة وجائعة".

فوضع "111" ذراعيه على كتفيهما وهو يدفعهما للتحرك ويقول "إذا هيا بنا نحتفل بحزننا هذا ونسده ببعض الطعام وليكن غدا ما يكون".

فضحك "153" معقبا "ستكون أول من يحتفل بحزنه بهذه الطريقة", فرد "111" عليه "الحزن حفل لشخص واحد, بطاقة دعوة واحدة فقط, ومدعو وحيد, إذا استطعنا أن ندعو من يشاركنا هذا الحفل, حينها سيصبح الأمر أهون كثيرا, سيصبح فعل محتمل".

وأنطلق ثلاثتهم وكل منهم يحمل على وجهه ابتسامة, تلك الابتسامة التي تخفى خلفها مخاوف كثيرة.

تسلل ضوء الصباح عبر نافذة غرفتها ليداعب وجهها فأيقظها, أيقظها قبل دقيقة واحدة من انطلاق جرس منبهها, قامت من فراشها كعادتها لتلقي نظرة على وجهها في المرآة وأطراف أصابعها تتخلل شعرها لتبدأ يومها بالابتسامة المعتادة, ابتسامة كانت كستار يخفى خلفه القلق

المشتعل بداخلها، ستارا كان ثقيلًا بما يكفي ليخدع كل من سيقابلها، وما أن خرجت من غرفتها حتى وجدت أبيها في حلتها يجلس على الطاولة في انتظارها، تعجبت كونه يذهب دائما إلى عمله قبلها، ولكنها توقعت إنه سيفاتها بشأن الترتيبات التي وعد البروفيسور قبل رحيله بها، أو هذا ما تمنته.

"ألا زلت عند رأيك يا أبنتي؟"

قالها خافتة، راجية أن تتراجع هي عن الاتفاق فتحله من وعده، ولكنها أجابت بالخفوت والرجاء نفسيهما "نعم يا أبي".

"هل حسبتى حسبتك جيدا؟، هل تعرفين ماذا ستخسرين؟"

أجابته على الفور "بل أعرف ماذا سأكسب".

كان يعرف أن الطفلة التي اعتادت أن تنتشبت بجميع لعبها لن تتراجع، ولكنها محاولة أخيرة، هز رأسه مستسلما وهو يقول "إذا تجهزا، وأعلمي أنه منذ اللحظة التي ستغادرين فيها المدينة لا يمكنك العودة، أو حتى الاتصال بنا لفترة طويلة حتى تهدأ الأمور تماما، وقد لا تهدأ أبدا، ستكونين هناك وحدك ولن يمكنني أن أساعدك في الوقت المناسب إذا ما احتجت لأي شيء".

اقتربت منه وجلست تحت ذيله وهي تضع رأسها على جذعه وتقول "لقد فعلت كل ما عليك لتراني سعيدة يا أبي وهذا يكفي، ولتطمئن فأنا هناك لن أكون وحدي على الإطلاق، أطمئن يا أبي وأعلم أنك قد اتخذت القرار الصحيح، ولن أنسى هذا لك أبدا، ولا تعلم كم أنا ممتنة لك وسعيدة بذلك".

رفع أبيها يده وربت على رأسها، تخللت أصابعه شعرها فاستسلمت تماما تحت يده، أغمضت عينيها وهي تتذكر الطفلة التي لم تكن تجد راحتها سوى في هذا المكان، وحقق هو بها وهو يتساءل بدوره، أين ذهبت هذه الطفلة؟، تنهد وهو يرفع رأسها ويخبرها "أنا أيضا أتمني ذلك، لقد رتبت كل شيء، سامهلكما بضعة أيام لتخبراني أنكما مستعدين، ولن تعرفا الوجهة أو أي شيء إلا بعد التحرك لضمان الأمان فكما تعرفين فإن لأخيك عيون وأذان في كل مكان، كل ما عليك معرفته أن عليكما تجهيز حقائبكما ثم سنعقد قرانكما قبل رحيلكما بالبيت عنده ومن بعدها ستقلكما السيارة من منزله، وحاولا ألا تتأخرا يا أبنتي، أريد أن نتجنب المشكلات بقدر الإمكان".

اندفعت "52" لتقف وتلقى بنفسها بين ذراعيه بكل سعادة وهي لا تصدق "أشكرك يا أبي، أشكرك كثيرا، أنا حقا أحبك، أحبك أبي، أحبك أكثر مما تتخيل".

دمعت عيناه وهي يغلق ذراعيه عليها، قبل أن يقبل وجنتها ويعود لسؤالها "أهذا ما تريدين؟"

"نعم يا أبي" أجابت بكل حماس.

"ليكن يا أبنتي، والآن سأنصرف فقد تأخرت عن العمل".

عادت لتقبيله بفرحتها الطفولية وهي تخبره إنها ستذهب هي الأخرى لترتدي فستانها بسرعة وتطلق بعدها إلى "111" لتخبره بكل هذا، كانت سعادتها جمة، فقد أزاح الستار الثقيل الذي

كانت قد ضربته منذ قليل على نافذتها لتخفى كل ما تنأثر بداخلها, أزاحه ومد يده ليعيد ترتيب كل هذه الأشياء ويصنع لها بيتا جميلا, ولكن ثمة عاصفة لم تكن لتترك هذه السعادة علي حالها إذ ضربت كل ما فعله الأب في ثانية واحدة, وليتها منحتها فقط الوقت لتسعد بما يكفي بصنيع أبيها, أنفتح باب البيت وإذا بأخيها "31" يدخل مبتسما ابتسامة واسعة وهما مذهولين من عودته في مثل هذا الوقت, فسأله الأب متعجبا:

"هل أنت بخير يا ولدي؟, هل وقع أي سوء؟"

فأجابه على الفور وابتسامته تتسع أكثر:

"لا يا أبي, لقد مررت عليك بالعمل فأخبروني إنك لم تحضر اليوم فجئت بسرعة إلى هنا لأخبرك بما لدي".

عاد الأب ليسأله "خير يا ولدي؟, ماذا لديك لتخبرني إياه؟"

أجابه وعينه تنتقل بينهما, وهي على صمتها ولكن قلبها يكاد يقفز من صدرها قلقلًا.

"لقد أعلموني اليوم إنه قد تم اختياري لقيادة القذف التالي".

واكتفى كليهما بالابتسام, وأشياء كثيرة تدور برأسيهما, في وقت سابق كان لخبر كهذا أن يملأهما فرحا وفخرا, ولكنهما لم يبديا الكثير من السعادة بالخبر, ولم يزعه ذلك, فلم يكن هذا كل ما لديه, قال الأب:

"مبروك يا ولدي, هذا بالطبع خبر يستحق الاحتفال".

ولكن "31" لم يجب أبيه, بل كان كأنه لم يسمعه, فقط التفت إلى أخته وابتسامته تزداد اتساعا وهو يقول لها:

"وقد لمحت اسم صديقك هذا "111" ضمن المختارين للخروج في هذا القذف, أعتقد أن أمامك متسع من الوقت لتوديعه".

وسقطت مكانها على المقعد المجاور مصدومة, فالأخبار المتلاحقة كانت كفيلة بإرباك حسابات الجميع.

في مشهد تتبادل لقطاته بين طاولتين, جلس "111" و "52" و "153" على طاولة بمنزل الأول بعد أن أسرعت الثانية لتخبرهم بما حدث, بينما جلس الأب و "31" على طاولة أخرى بمنزلهم, ولنقل أن على هذه الطاولة الأخيرة حضرت القوة, وبشائر النصر, حضر الحصار, كانا يريا من موقعهما أنه لم يتبق سوى نقلة الملكة الأخيرة والملك وحيدا في ركن الرقعة يحتمي بجندي ضعيف, وعلي الطاولة الثانية كانت المقاومة, العناد, الحب, والأمل في أن يجدوا حلا, وليس بالطبع في أن تحدث المعجزة.

خبر اختيار "31" وحده للخروج في القذف القادم كان كافيا لتحقيق كل ما يريدانه, فكل ما كان عليهما فعله هو انتظار رحيله وبعدها, ومع موافقة أبيها على زواجهما, كان سيمكنهما حينها أن يكونا معا في مواجهة الجميع بمدينتهما وفي عملهما دون الحاجة إلي الهروب أو التخلي عن أي شيء, هذا ما كان يفكر فيه "111" بصوت عال وهو يتحرك أمام الطاولة بينما جلست هي وقد أسندت رأسها على قبضة يدها, وأخذ "153" يتابع باهتمام كل ما يقوله صديقه.

أما خبر خروج "111" في القذف فكان كفيلا لأن يحل الأب من وعده لابنته, فيجنبه أن تتبدد هي, ويجنبه أن يرتكب ابنه أية حماقة تجعله يخسر كل ما حققه في سنوات عمله, ويجنبه العار الذي يخشاه حينما يعلم الجميع بزواج ابنته من مشوه, وهذا ما كان يفكر فيه أثناء جلوسه وهو يقول لـ "31":

"ولكنك تعلم إنه ليس الموعد المفترض لخروجه في قذف, سيعرفون إنك من دبرت ذلك وإنك من أوصيت بإدراج اسمه ضمن القائمة", وفي الوقت الذي كانت "52" تطرح فيه الاستفسار نفسه, هز "111" رأسه وهو يقول "وماذا يمكننا أن نفعل؟"

"يمكنه أن يتقدم بشكوى وحينها ستحاسب لاستغلال نفوذك في أمور شخصية" قال الأب لابنه.
"بحث الشكوى والبت في أمرها سيستغرق وقتا طويلا, فهم سيراجعون حالة بين ملايين الحالات وبالتأكيد لن يمهلنا القذف هذا الوقت" قال "153" ردا على "52".
"إذا لنهرب" قالت "52".

"ويحيا حياته كلها والعار يلاحقه, هذا المرة هو لا يهرب مني بل يهرب من الخدمة العامة ومن شرف الخروج في قذف" قال "31" فرد الأب:

"ولكنك تعلم إنه على أية حال مشوه ولا شرف يتطلع إليه في هذه الخدمة".

"هنا فقط سيتذكر العالم كله أن الخدمة العامة لا فرق فيها بين عائلة و أخرى وأن على الجميع تأديتها ومن يفكر في التهرب منها يحاكم, حينها سيتحدثون عن المساواة والديمقراطية وكل هذه

الشعارات التي لا نسمع عنها سوى فيما يفيدهم" قالها "111" وهو يجلس يائسا على مقعده لا يدرى ماذا عليه أن يفعل؟

أبتسم الأب ابتسامة قلقة وهو حائر في أمر وعده, وهل هذا كافي ليحله منه دون أن يكون قد خلف به؟, هو لم يسع لتدبير كل هذا على أي حال ولا شيء بيديه ليفعله, في الوقت الذي وقفت فيه "52" وهو تصيح:

"هل لدى أحدكم حل آخر سوى أن نعجل فقط بما اتفقنا عليه مسبقا؟, أن نهرب".

طأطأ كلاهما رأسه, وكانت قد حسمت أمرها, حملت حقيبتها وأخبرتهم إنها سترتب الأمر مع أبيها وتعود لتخبرهما بالخطئة التي سترسمها, احتضنته قبل رحيلها وهي تبتسم, ستار آخر كان له أن يكون كافيا لخداع أي أحد, سواء, كانت تحاول بكل ما فيها أن تطمئنه, ولكن هل كانت هي مطمئنة؟

خرجت وكل ما فيها ينتفض قلقلًا, ركبت دراجتها وانطلقت وعيناها ممتلئة بالدموع المحبوسة, أسرعت تقطع الشوارع عائدة, ودون أن تلاحظ تجاوزت إشارة حمراء لينطلق صوت كلاكس سيارة قادمة بسرعة, جعلها الصوت تنتبه فحاولت أن تسيطر على دراجتها وهي تنحرف بأقصى سرعتها يمينا باتجاه مجموعة من الصغار يلعبون على الرصيف, وضغطت مكابح دراجتها بقوة قبل الاصطدام بهم لتسقط من فوق دراجتها بجوارهم.

كان الرعب قد ملأ الأطفال فوققوا مذعورين, فقامت تنتفض ملابسها وقد أصابتها بعض الخدوش, ولكنها ربتت على رأس الطفل الذي كانت على وشك صدمه بدراجتها وابتسمت له قبل أن تعاود قيادة دراجتها باتجاه المنزل, ولكن هذه المرة لم تكد تقطع بضعة أمتار حتى توقفت بجوار شجرة وجلست تحتها تبكي بكل ما فيها, جلست لتخرج كل التوتر والضغط المشحونة بهما منذ الصباح.

دقيقة واحدة وعادت تمسح دموعها وهي تربت على كتفها وتقول بحماس "لا وقت للبكاء, تماسكي, تماسكي", كانت بحاجة لمن يربت بيده عليها في هذا الوقت, وكون هذا الشخص لم يكن موجودا فقد ألمها ذلك أكثر, ولكنها كانت تعلم إنه لا وقت للألم, عليها أن تربت علي نفسها بنفسها وبعدها ستفعل كل ما تريد بين يده تلك التي تريدها, تحصل عليه فقط وستجعله يعوضها عن كل هذا.

أزاحت عن صدرها ثقل الإحساس بأنها وحيدة في مواجهة كل هذا وعادت لقيادة دراجتها, وصلت إلى المنزل وهناك كان أبيها لا يزال على حاله جالسا على الطاولة, منكس الرأس تدور بها مئات الأفكار, بينما كان أخيها قد عاد إلى عمله, سحبت مقعدا لتجلس قبالة, وهي يرى خدوشها وفستانها الذي تمزق, كانت الحالة التي عليها تشي بكل ما مرت به.

"من الجيد إنك وحدك يا أبي, سنعود إلى ما رسمته من قبل, ولكن هذه المرة لا وقت لدينا, نحن جاهزان, متى يمكنك أن تخرجنا من هنا؟"

نظر إليها أبيها لا يدرى ماذا يقول ففهمت على الفور ما يدور برأسه, وإنه محتارا بين المضي في مساعدتهما أو التراجع, وهنا نظرت إليه وهي تؤكد:

"إذا رفضت مساعدتنا فنحن سنرحل على أي حال".

الإصرار الذي رآه في عينيها جعله يربت على يدها وهو يرأف بحالها ويقول:

"بعد يومين سنقيم احتفالاً هنا لاختيار أخيك لقيادة القذف, ستحضره كالعادة الشخصيات الهامة في المدينة كلها وسنكون جميعاً مشغولين به, فقط يمر الاحتفال وبعدها سنتحرك مباشرة".

عادت لاحتضانه, وهي تشكره, قبل أن تدخل إلى غرفتها لتغتسل مما لحق بها.

جهزت حمامها, وخلعت ملابسها, ووقفت تحت الماء الساخن تتمنى لو يمكنه أن يغسل أفكارها ويزيلها جميعاً من رأسها في هذه اللحظة كما يزيل الأتربة والدماء, التي نزفتها نتيجة الخدوش, عن جسدها, وأخذت الصور تتلاحق أمام عينيها المغمضتين تحت الماء.

صورة "111" وهم يقودونه للخروج في القذف, صورتها وهما هاربان, صورة أخيها حينما يعرف, وصورته وهو يصطدم بأبيها, ولكنها عادت لتنفذ كل ذلك عن رأسها, فكل ما تريده الآن هو الخروج من هذه المدينة.

الأضواء بحديقة المنزل جعلتها وكأن الشمس قد أشرقت عليها هذا المساء, والفرقة الموسيقية تعزف إيقاع موسيقي هادئ للغاية, هادئ بما يكفي ليشعل القلق المتزايد بصدر الأب والابن والابنة أكثر, ودقات قلوبهم تنتسارع.

كان الأب يستقبل ضيوفه برفقة ابنه "31", بينما كانت "52" بغرفتها أمام مراتها وقد تزينت في فستان أسود وأطلقت شعرها حرا على كتفيها, نظرت نظرة أخيرة في المرأة, ثم ألقت لنفسها بقبلتها المعتادة وهي تبتسم في محاولة للتخفيف من توترها قبل الخروج إلى الحفل, لتقف إلى جوار أبيها وأخيها تستقبل المدعوين, وإلى الخلف من أخيها وقف "1313".

"1313" هو المشوه الوحيد الذي سمح له بحضور الحفل, حتى الآن, كان يقف وقد ملأه الزهو لذلك, حتى ظهر عند الباب "111" وصديقه "153" وصديقة الأخير "224", التي ما إن رأتها "52" حتى جرت نحوها فاتحة ذراعيها لتضمها, كانت سعيدة برؤيتها وهي تقول لها "مرحبا بعودتك".

"224" فتاة متوسطة الطول, شقراء, دقيقة الأنف والفم, تتميز بجمالها الرقيق, ولكنها محسوبة بدورها على هؤلاء المشوهين, فذيلها قصير للغاية, حتى إنه يكاد لا يظهر من تحت فستانها الأبيض الطويل كأنه ليس موجودا البتة, وما أن ظهر ثلاثتهم حتى توتر الأب في حين عقد "31" حاجبيه وقلب "1313" من خلفه شفتيه فحضرهم لم يرق له.

اتجهت "52" إلى أبيها قائلة " هؤلاء ضيوفي يا أبى".

أوماً أبيها برأسه وهو يريد أن يسألها "وما كانت حاجتنا لهذا الاستفزاز في هذه الليلة؟", ولكنه لم يستطع أن ينطق بها في وجود أخيها, فقط اكتفى بتحيتهم في حين أمتص أخيها غضبته سريعا وهو يبتسم ويمد يده لمصافحة "111" ويقول: "مرحبا بالبطل الذي سيخرج تحت قيادتي في القذف القادم, حسنا فعلت أختي بأن دعيتك للحضور اليوم, فرصة جيدة لتودع الجميع".

اكتمى "111" بأن أوماً برأسه بدوره دون أن يجيب وهو يسحب يده من يد "31", ولكن الأخير شد عليها وهو يقول ساخرا "وإن كنت أشك في أن أحدا من الموجودين هنا اليوم سيفتقدك" قالها ليتبعها بضحكة عالية وهو يترك يد "111" ليضحك من خلفه "1313", وهنا أمسكت "52" بذراع "111" ورمقت أخيها بنظرة ملؤها المقت وهي تتحرك مع الأول إلى الطاولة التي جهزتها لهم.

ما إن جلسوا جميعا حتى توجهت بالحديث إلى "224":

"عرفت أنك خرجت من المستشفى اليوم فقط, لقد افتقدناك كثيرا".

كانت الأخيرة قد مرت بو عكة صحية معتادة نظرا لجسدها النحيل ومناعتها الضعيفة, قالت "إنني بخير الآن, ولقد افتقدتكم أنا أيضا جميعا, ولقد عرفت أنه قد فاتني الكثير".

"يبدو أن صديقك لم ينتظر وأمدك بكل ما فاتك" قالتها "52" ضاحكة وهي تشير إلى "153" الذي كان قد جلس ويده تمسك بيد صديقه التي أفتقدها في الفترة التي تم حجزها فيها بالمستشفى. ثم عادت "52" لمزاحها وهي تقول "وأخيرا وبعد أيام طويلة السيد "153" نراه سعيد حقًا، بعد أن وجد ما كان يبحث عنه"، فتورد وجه "224" خجلًا، بينما امتلأ هو فخرا وهو يجيبها "أنا لم أجد شيء، لأنني منذ البداية لم أبحث عن شيء"، ثم ألقت إلى صديقه وهو يغازلها: "أحمق هو من يبحث عن الحب، فالحب يعرف طريقه جيدا إلينا، سيبحث هو عنا ويجدنا، وحينها سيكون هذا أصدق حب قابلنا"، ولم تجد "224" ما تقوله، ظل وجهها على تورده فضغط هو على يديها برفق ليطمئنها إنها معه، وليذهب بعيدا عن كل ما حولهما وكل منهما ينظر إلى عين الآخر ويذوب فيها، في حين مال "111" على أذن "52" وهو يسألها بكل جدية بعيدا عن مزاحهم:

"لماذا صممت على أن نحضر الليلة هذه الحفلة وأنت تعلمين أننا ليس مرغوبا بنا هنا؟"
"أردت أن أراك".

قالتها مازحة فعاد إلى جديته وهو يقول "أنا لا أمزح".

"وأنا أيضا، ماذا سأفعل وحدي في حفل كهذا؟، أنت تعرف أنني لا أحب مجتمع المجاملات والنفاق هذا، وسبب آخر أنني أردت أن أقطع على أبي أي طريق للتراجع فيما اتفقنا عليه بعد ما حدث".

"أريد التراجع؟" سألها قلقلًا فأسرعت لتجيب:

"لقد أكد لي أنه عند وعده، ولكنني دعوتكم اليوم إمعانا في التأكيد، ولنعد إلى السبب الأول، أردت أن أراك".

قالتها مبتسمة فنجحت في أن تنتزع منه تلك الابتسامة التي تحصل عليها كل مرة بصعوبة، وهنا دعتة للرقص وهي تقول، "لتنس إنهم جميعا هنا، لا تكثرث لهم، كأننا وحدنا".

قبل أن تأخذ بيده حيث ساحة الرقص ويتبعهما الصديقين "153" و "224"، كانت "224" أطول منه بقليل فأثار منظرهما الضحك وهو يضم خصرها النحيل بذراعه القصيرة ويرقصان معا، ولكنهما بدورهما لم يعبئا، فهم يعلمون جيدا أنهم لا ينتمون إلى هنا.

مالت "52" على أذن "111" وهي تراقصه لتقول "أريدك ألا تبات بمنزلك حتى ننتهي من كل هذا، ولا تحضر إلى العمل، فقط جهز حقائبك وجد مكانا لا يتوقع أحد أنك به".

تعجب لكلامها فسألها "أتخشين شيئا محمدا؟"

"لست أدري ولكن حتى أكون مطمئنة لحين خروجنا من هنا".

أوما برأسه موافقة، ومن بعيد كانت عينا أخيها تتبعهما كعيون المدعويين، ولكن وحده كان يشعر بالخرج مما تفعله هي أمام الجميع، أخذ يعزى نفسه قائلا أن كل هذا سينتهي عن قريب، قريبا سيتخلص من هذا الكابوس.

في اليومين التاليين جن جنون "31" نتيجة اختفاء "111", أخذ يبحث عنه دون فائدة, ولم يجد أمامه سواها, وبكل تحد أخبرته إنها لا تعرف أين ذهب, التحدي الذي كان في عينيه يؤكد أنها تعرف ولكنه يعرف أيضا أنها لن تقصص عن مكانه, وحينما أستقره صمتها كاد أن يتعرض لها بالأذى فوقف أبوه بينهما, "إذا أردت أن تبحث عنه فأبحث عنه بعيدا عنها, مشكلتك معه وليست معها", كان صارما حد أن "31" لم يستطع أن يزيد كلمة واحدة, وخرج بكل غضب حتى وصل إلى بيت "153", ركل باب الحديقة ثم أخذ يدق جرس الباب بكل عصبية وما أن فتح "153" الباب حتى أمسك "31" به من ياقته ودفعه للداخل وهو يسأله عن مكان صديقه والشر يتطاير من عينيه, وكل ما أستطاع "153" أن ينطق به أنه لا يعرف إلى أين ذهب "111", ولكنه كان ينطقها بكل خوف, الخوف الذي جعل "31" يصدقه, دفعه بكل قوته ليسقط الثاني أرضا و"31" يخبره أنه إذا علم أنه كان يخفي أي شيء فسوف يناله عقابا شديدا, وخرج, خرج يلوم نفسه فقد كان عليه أن يضعه أمام ناظريه طيلة الوقت المتبقي, اختفائه بهذه الطريقة أربك كل حساباته وأشعل بداخله غضبا كان قادرا علي أن يدمر أي شيء في سبيل الوصول إليه.

أما بالمنزل, فكان من الواضح أن الأذى قادم لا شك, وهنا أخبر الأب ابنته أن حماية لها وحماية لابنه من أية حماقة فعليهما أن يسرعا بما خططا له, أخبرها أن عليهما أن يجهزا هذه الليلة, سيغادران المدينة كلها ليلا, وأخبرها أن ترسل إلى "111" ليستعد هو الآخر, فأخبرته بأنه مستعد, ستجهز فقط حقيبتها وتتحرك إلى هناك وتنتظر أبيها, وقبل رحيلها أخبرته بالمكان الذي سينتظران به.

جهزت حقيبتها, وأرسلت في طلب "224" التي جاءت بسيارتها, وانتظرت بها حتى خرجت لها "52" حاملة حقيبتها, وضعت الحقيبة بالسيارة وتحركتا.

وبعيدا في كوخ خشبي يمتلكه والد "224", على هضبة عالية على شاطئ البحر, كان "111" و "153" بانتظار وصولهما, وما أن وصلت حتى احتضنها "111", وجلسا أربعتهم في انتظار وصول الأب, والقلق يعلو وجوههم جميعا, يخفف منه تعانق أيديهما من حين إلى آخر, وكلما مر الوقت وتأخر الأب زاد قلقهما.

ومع حلول الليل سمعوا جميعا صوت عجلات سيارة وهي تقف أمام الكوخ, وقفا كلا منهما, "111" و "52", وهما ينظران إلى بعضهما البعض, في حين تحركت "224" لتفتح الباب, وما أن فتحت حتى شهقت, ويد تدفع الباب لينفتح على آخره ويظهر من خلفه "31" ومعه قوة

عسكرية صغيرة, وهو ينظر إليهم ووجهه يحمل ابتسامة انتصار محقق, انتصار يعنى أنهما لن يكونا مع بعض أبدا.

"أعتقد أن هذه اللعبة انتهت" قالها "31" ليندفع بعدها عسكريان ليمسكا بـ "111" الذي استسلم تماما أمام هول المفاجأة وأخرجاه إلى السيارة المنتظرة بالخارج, وحينما اندفعت هي لتلحق به أعترض أخيها طريقها, وأمسك بها, حاولت لكمه بيديها وصفعه بذيلها, حاولت التخلص من قبضته بلا فائدة, وأمام عينيها كانت هناك سيارة أخرى قد وقفت خلف السيارة التي أخذوا فيها "111", سيارة تعرفها جيدا, فبداخل السيارة كان أبيها جالسا, رفع عينييه ولكن ما أن وقعت على عينيها ورأى تلك النظرة بهما حتى عاد ليخفضهما سريعا, وهنا استسلمت هي بين يدي أخيها, حينما أدركت أنها وحيدة تماما.

غرفة بيضاء لا تحتوى سوى على فراش صغير, ودولاب صغير كذلك, ليس لها سوى مدخل واحد عبارة عن باب يتكون من قضبان فولاذية قد تم طلاؤها باللون الأبيض نفسه يفتح بطريقة آلية, ولها نافذة تغطيها القضبان نفسها تطل على حديقة واسعة تنتهي بسور عال, سور كان يحجب السماء نفسها, وكأن من بناه أراد أن يرسل رسالة لمن بالداخل مضمونها "أنتم حقا سجناء".

تكومت "52" في فراشها وقد ضمت جذعها إلى صدرها وأحاطت ذراعيها به ودفنت وجهها فيه, في حين لفت ذيلها حولها.

الآباء أيضا يخونون, إنها الخيانة الأسوأ على الإطلاق, وكان هناك خيانة جيدة وأخرى سيئة!, بالطبع كل الخيانات سيئة, ولكن تلك الخيانة التي تتركك وحيدا, التي تسلبك الذراعين اللتين يمكنك أن تلجأ إليهما هي الأسوأ, ففي حالات أخرى حينما يخون الحبيب نلجأ إلى الصديق ونرتمي بين ذراعيه, وهنا كان دوما صديقها هو أبيها, أبيها الذي اعترفت له منذ اليوم الأول

بحبها لـ "111" وهي تعلم أنه وإن رفض هذا الحب، فهو سيتفهم، وحينما يخون الصديق فهناك الحبيب الذي يهون علينا، أما أن يخونها أبيها فيحرمها حبيبها؟، أين يمكنها أن تبكى الآن؟، وهذا السؤال لم يكن بسيطاً بالمرّة، فلو عرف كل منا أين يمكنه أن يبكي لما أصبح البكاء فعلاً عزيزاً إلى هذا الحد، إنها الآن لا تشعر إنها سجينّة بين أربعة جدران، بل سجينّة في مثلث أضلعه الثلاثة هي الخيانة، والخذلان، والتخلي، وكان كل هذا ما يدور برأسها الذي لم يتوقف عن التفكير منذ أن وصلت إلى هنا.

أمامها مباشرة جلس أبيها على مقعد تم إحضاره خصيصاً له وإلى جواره وقف طبيب أشيب، كان أبيها يبحث عن كلمات مناسبة يمكنه أن ينطق بها في هذه اللحظة تحديداً، ولكن تخلت عنه دبلوماسيته التي كان يتميز بها، تاهت منه الكلمات وتركته أعزلاً لا شيء لديه ليدافع به عن نفسه، وحينما عجز عن إيجاد هذه الكلمات قال:

"يوماً ما ستعلمين أننا لم نفعل سوى ما فيه مصلحتك".

لم ترفع وجهها، ولم تجب، كلمات كثيرة كانت تفور بداخلها، أرادت أن تصرخ فيه "تقصد مصلحتكم"، ولكن بما سيفيد الصراخ؟

خيل إليه أنها لم تسمعه فعاد للنداء عليها "ابنتي؟"، وحينما لم تجب أيضاً قام من مكانه وحاول أن يربت عليها ولكن ما أن لامسها كف يده حتى انتفضت كأن تياراً كهربياً قد سرى في جسدها، وهنا أمسك الطبيب بيده وهو يشير إليه بأن يصحبه للخارج.

مرر الطبيب كارتاً ممغنطاً بالجهاز الآلي الملصق بجانب الباب ففتح الباب تلقائياً، خرج كلاهما ودخل عامل ليحمل المقعد إلى الخارج دون أن تلتفت هي لأي مما يحدث، كأنها ليست هنا.

قال الأب وهو يعبر الممر مع الطبيب "لست مطمئناً لحالتها، لم تنطق بكلمة واحدة منذ أن جننا بها إلى هنا".

وضع الطبيب يديه في جيب معطفه وهو يبتسم محاولاً أن يطمئنه "لا تستهن بحالتها، لا زالت مصدومة، ستحتاج إلى بعض الوقت فقط حتى تتقبل كل ما حدث، ولا تنس أنها هنا منذ الليلة الفائتة فقط".

تنهد الأب تنهيدة حارة وعيناه تلمع بدموع لن يذرفها وهو يقول "أتمنى أن تتحسن سريعاً، لا يمكنني أن أتحمل رؤيتها على هذا الحال".

وبعيداً، في غرفة أخرى، لا تختلف كثيراً عن هذه الغرفة، كان "111" قد قيد إلى الفراش الذي ينাম عليه، كلتا يديه وذيله كانا مكبلين بالكامل.

علمياً، فأننا إذا وضعنا إحدى يدينا فوق الأخرى في شكل متقاطع، ثم لفنا ساعداً على الآخر، ثم شبكنا أصابع اليدين سوياً، فإن ثمة ارتباطاً وقياسياً سيصيب العقل حينها، بحيث لو قام أحدهم بإصدار أمر لنا بتحريك إصبع بعينه دون لمس، ففي الغالب سنحرك إصبع آخر، يفقد العقل حينها قدرته على التعرف على هذه الأصابع في هذه الوضعية، وفي هذه الحالة، إذا أغمض أحدهم عينيه وربت بكف يده على اليد الأخرى، فإنه سيشعر وكأن يداً غريبة هي التي تربت عليه، ولم

يكن "111" يحتاج سوى لهذا، أن تربت أية يد غريبة عليه في هذه اللحظة، أن تهون أية يد عليه إحساسه بالعجز في قيده هذا، الوحيدون تعلمهم الوحدة كيف يربتون على أنفسهم جيدا، كيف يحتضنون أنفسهم، ولكنهم حين قيده لم يتركوا له حتى فرصة ليفعل هذا.

فتح الباب ودخل منه "31"، ثم سحب مقعدا كان موضوعا بجوار الباب وتقدم ليجلس إلى جواره مباشرة، جلس لثوان وقد وضع يده على فمه كأنه يفكر فيما سيقول وهو ينظر إلى "111"، لم تكن نظرة شماتة أو نظرة تشفى، رأى "111" هذا واضحا في عينيه، وبكل هدوء مال "31" إلى الأمام وهو يقول:

"أنت تعلم أن الأمر ليس شخصي بيني وبينك، في ظروف أخرى كان من الممكن أن نصبح..."

سكت قليلا فقال "111" ساخرا "أصدقاء؟"

رد "31" على الفور "بالطبع لا، لم آت إلى هنا لاستهزأ بك أو أكذب عليك وأقول مثل هذا الكلام، ولكن على الأقل كان يمكن أن يتجنب كلا منا الآخر، كان من الممكن ألا يكون بيننا سوى احترام متبادل".

نظر إليه "111" متعجبا فأكمل "لا تتعجب، فأنا أحترم كل إنسان طموح، كل من يتميز في عمله، وأنت بشهادة الجميع استطعت أن تتفوق على كل من حولك، وهذا بالنسبة لي شيئا لا يدعو إلى أن أحمل ضدك أي حقد أو كراهية بالعكس، هذا شيء يجبرني على احترامك وتقديرك".

قال "31" جملته الأخيرة بصدق واضح ما جعل "111" يتعجب وهو يقول:

"أفطعت كل هذه المسافة لتخبرني بذلك؟، لا تخبرني إنك تشعر بذنب تجاهي أو أنك في حاجة لتبرير ما فعلت حتى تتمكن من أن تنام ليلا وضميرك راض عما فعلت؟"

وهنا وقف "31" ثم سار نحو النافذة وهو يتطلع إلى الخارج وقال دون أن يستدير "أنا رجل عسكري يا "111"، لا تظن أن استغلالي لنفوذ وظيفتي وتعريض سمعتي للخطر في أمر كهذا شيء سهل بالنسبة لي، لقد خاطرت بكل ما أملك، ولو أن ما حدث انكشف قبل خروجي في القذف القادم فإني سأخسر كل شيء، وستتم محاكمتي، وحتى حلم البطولة والخلود سيضيع، أنت لا تعرف شيئا عن شرف العسكرية"، ثم استدار ليقول بعصبية "ولكن غباؤكما هو ما أوصلنا إلى هذه النقطة، طلبت منها أن تكف وطلبت منك مرارا أن تبتعد، ولكن من منكما أستمع؟، هل لك أن تخبرني ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟، تريدان أن تفعل شيئا لم يجرؤ أحد على فعله من قبلكما وتريدا من الجميع أن يصفق لكما وأن يشجعكما، هل هذا ما خطر ببالكما وأنتما تمضيان فيما تريدان؟، أخبرني فقط فيما كنتما تفكران وأنتما تريدان أن تخرقا طبيعة الحياة بهذا الشكل؟"

"طبيعة الحياة؟" قالها "111" مستنكرا فأسرع "31" ليقول وهو يعود إلى مقعده ولكنه لم يعد إلى هدوءه "نعم طبيعة الحياة، بل طبيعة كل شيء، دائما هناك درجات، ولا يمكن بهذه البساطة أن يأتي من يسكنون تحت الأرض ويحلموا بالقفز درجات، بل بالطيران ليعيشوا بالعالية".

قال "111" وقد تعصب بدوره "من الذي قسمنا إلى طبقات ودرجات؟ من يعطيكم الحق لتفعلون ذلك؟ سلبنا أحدهم حلما بأساطير البطولة والخلود في عالم آخر وها أنتم تريدون أن تسلبوننا حقنا بالحياة، بالحب، لما كل هذا الحقد؟"

تفاجأ "31" بجملته الأخيرة فرد مصعوقا:

"حقد؟، أظن حقا إننا نحقد عليكم؟، ماذا لديكم لنحسدكم عليه؟، أتريد أن تحدثني عن الحقد؟، الحقد شعور العاجزين، الفاشل الذي لا يمكنه أن ينجح لن يسعه إلا أن يحقد عليك إذا نجحت أنت فيما فشل هو فيه، الفقير سيحقد عليك إذا أصبحت غنيا، العاطل سيحقد عليك إذا وجدت عملا قبله، هل تعرف من الذي كان يشي بكم كل مرة؟، مشوه مثلك، هل تعرف من الذي قيدك وأتى بك إلى هنا؟، مشوه آخر، هل تعرف من الذي يتمنى ألا تحقق أي شيء مما وصلت أنت إليه ويكره رؤية نجاحك؟، مشوهين آخرين، هل لك أن تجبني من الذي ساعدك للوصول إلى ما أنت فيه وأخذ بيدك؟، إنهم طبيعيون مثلنا، فأني حقد تتحدث عنه، من لديهم فقط شعور بالنقص هم من يحقدون، يحقدون لأنهم يريدون أن يشعروا دائما أن أحدا ما يقع في مرتبة أقل منهم، لا أحد يريد أن يشعر أنه الأسوأ حالا، كلما شعرت أن هناك من هو أسوأ حالا منك كلما جعلك هذا الأمر أكثر صبرا على حالك ورضا به، إنها الطريقة الأكثر فعالية لمواساة النفس، يريدون أن يتمتعوا أو يتلذذوا بشعور التسديد، على كل واحد أن يشعر بأنه سيذا على أحد آخر، هكذا هي الحياة، فإذا رأيت من هو مثلك، من لا يزيد عنك في أي شيء يرتقى، حينها ستشعر بالحقد، فقط لأنك لا تستطيع أن تفعل مثله، مثل هذا الشعور لا يصيب سوى من لديهم نقص، فلا تحاسبني على كل هذا".

"وماذا عن المحب؟"

سأله "111"، ولم يكن "31" قد توقع سؤاله هذا فردد متعجبا "المحب؟"

"نعم المحب، من الذي يحقد علي المحب؟، سأخبرك أنا هذه المرة، من لا يعرفون الحب، من فشلوا في قصصهم، ستشتعل صدورهم حقا وغيره حينما يروا الحب في عيون الآخرين، هذا نوعا آخر من الحقد لم تحدثني أنت عنه في خطبتك الطويلة".

ونظر "31" إليه وقد فهم جيد إلى ما يرمى، فتنهد وقال بكل هدوء وهو ينظر عميقا في عينيه: "صدقني، لو لم يكن الأمر يخص العائلة، أو لو كنا في عالم آخر لن يسخر منا أو سنعيش فيه شعر بالخزي إذا أتمنا لكما ما تريدان لأختلف كل شيء".

نطق كلمته الأخيرة ليسكت بعدها كلاهما تماما، شعر "111" بشيء من الصدق فيما نطق به "31"، حتى وإن كان المنطق الذي تبناه يرفضه "111" تماما، لم يكن له أن يستوعب كيف يخون رجل نفسه ويخترق القانون من أجل ما يسميه بالعائلة؟، ليت الأمر يعود بنفع شخصي عليه، كيف أقنعه أحدهم إلى هذا الحد بأن العائلة فوق القانون نفسه؟، ولكنه أستسلم فلم يعد لديه ما يتناقش بخصوصه، بل لم تعد هناك جدوى للنقاش من الأساس.

"كل ما أردت أنؤكد لك أن الأمر ليس شخصي بالمرة، وأنت تعلم جيدا أنني لم أكن في أي حاجة لتبرير أي مما حدث، ولكني فعلا أعرف أنني ارتكبت خطأ كبيرا، بشأنك وشأن أختي وشأن

مهنتي, ولكني لو خيرت ألف مرة لفعلت الأمر نفسه في كل مرة, فهو أمر يرتبط بالعائلة, وهذا شيء لن تفهمه أنت".

قالها "31" وهو ينظر إلى الأرض قبل أن يقوم من مكانه ويقف منتصبا وهو يقول "أسف على تقييدك ولكنها الظروف مرة أخرى تجبرنا على ذلك, ولكن فما عدا التقييد فقد أمرت بمعاملتك كما يليق بك, وأظنك ترى ذلك فأنا لم أودعك بسجن أو بغرفة حقيرة, وما أن تنطلق صفارات الاستنفار العام حتى سينتهي كل هذا".

ثم مال عليه وهو يربت على كتفه ويقول "سامحني".

أبتسم "111" ابتسامة مريرة وهو يقول: "أسامحك على إنك سلبت من أحب مني أم على حكمك على بالموت؟, أنت تأخذني في رحلة كلانا يعلم جيدا أن لا أمل لي فيها بتحقيق أي شيء, رحلة ستنتهي حتما بالموت؟"

ولم يجب "31", فقط استدار وهو ينظر إلى الأرض خزيا واتجه ناحية الباب مباشرة وهو يشير لمن بالخارج كي يفتحون له الباب, أصدر الباب صوتا آليا ثم أغلق بعد خروج "31", تاركا "111" خلفه ليغمض عينيه ويستسلم هو الآخر لمصيره, وكل كلام "31" يدور برأسه.

خرج "31" من الغرفة المحتجز بها "111" ليطلق زفيراً عميقاً حاول أن يخرج معه توتره كله الذي جاهد ليخفيه مع "111"، وأنطلق بين الأروقة ليذهب لإتمام المهمة المتبقية له، ولكن لم يكن لتوتره أن يفارقه، فحاول أن يدندن لحناً بشفتيه وهو يقطع ممراً علّه يزيل توتره هذا، من قال أن الأشرار لا يغنون؟، الأشرار يغنون ويرقصون أيضاً، إذا أردت أن تبقى حقاً فأبقى حيث البكاء، فإن الأشرار لا يبكون، وحدهم الوديعون الذين لا حيلة لهم من يبكون، وهذا كان حال "111" و"52".

وصل إلى غرفة أخرى كانوا قد احتجزوا بها "153"، ما أن أنفتح الباب ودلف منه "31" ومعه عسكريين، كان "1313" أحدهما، إلى داخل الغرفة حتى وقف "153" على قدميه بعد أن كان منزوي في ركن الغرفة، كان الخوف يبدو على ملامحه كلها، مد "31" يده ووضعها على كتفه وهو يقول له "لا تخف"، ولكن ما أن لامسته اليد حتى ارتعش جسده كله أكثر.

"لا نية لي لإيذائك" قالها "31" وتوقف ثانية لينظر فيها داخل عينيه قبل أن يكمل "إلا إذا أجبرتني على ذلك، وحينها لن تتسبب بالأذى لنفسك فقط".

قالها وعسكري آخر يدخل إلى الغرفة ممسكاً بـ "224" التي كانت أكثر تماسكاً، دفعها العسكري لتقف جنباً إلى جنب بجوار "153"، ونقل "31" بصره بينهما للحظات ليتأكد أن رسالته قد وصلت جيداً قبل أن يقول:

"أنتما أحرار، يمكنكما أن تذهبا، ولكن"،

توقف للحظات أخرى ليحصل على انتباههما جيداً وليترك تلك الثواني تفعل بهما التأثير الذي يريده قبل أن يكمل، "إذا نطق أحدهما بكلمة واحدة فلن يعود لسانه إلى فمه مرة أخرى، هل تفهمان ذلك؟"

هز "153" رأسه إيجاباً في حين قالت "224" بكل ثبات:

"وماذا عنهما؟"

حافظ "31" على هدوءه وهو يقول "بضعة أيام وستكون صديقتك معك لن أؤذى أختي بكل تأكيد".

فعدت لتسأل "و ماذا عن "111"؟"

أخذ "31" نفساً عميقاً وهو يقول بنفاذ صبر "لا شأن لكما به، كما تعلمان فأسمه مدرج على قائمة المطلوبين للخروج في القذف القادم ونحن فقط سنستضيفه معانا حتى ذلك الحين".

فتحت فمها لتتطرق بشيء آخر ولكنه قاطعها غاضباً "ومن السهل أن أتحفظ عليكم أنتما أيضاً إذا كنتما تصران على ذلك".

قالها وهو يدير ظهره ويستعد للخروج من الغرفة فأسرع "153" يقول راجيا "لا، سنفعل ما تريد، كل ما تريد".

التفت "31" إليه وهو يرمقه بنظرة قوية ويقول "أتعرف ماذا سيكون مصيركما إذا تحدثتما بكلمة واحدة عما حدث؟"

فأسرع "153" يجيبه "نعرف".

فقال له "31" "لا، لا تعرف، ومن الأفضل لكما ألا تحاولان أن تعرفا".

ثم أشار إلى العسكري الذي جلب "224" ليأخذهما إلى الخارج وهما لا يصدقان، وما أن غادرا حتى أقرب منه "1313" وهو يسأله "لماذا يا سيدي؟، كان يمكنك أن تبقيهما هنا تحت عينيك".

فألقت إليه "31" وهو يجيبه "كفانا مشكلات، غيابهم جميعا مرة واحدة سيثير التساؤلات، ثم أنهما لن يتمكننا من إثبات أي شيء، لا وقت لديهما لذلك، لقد انتهينا من المشكلة الكبرى وهذا يكفي".

وبالخارج، سار كلا من "153" و"224" في ظلام الليل بالطريق الخالي تماما، متجاورين دون أن يتحدث أيا منهما بكلمة واحدة، ظلا على صمتهما حتى وصلا إلى بيتها، وهناك أدار ظهره ليرحل دون أن يودعها حتى، فأمسكت به وهي تتساءل مستتكرة "ألن تقول شيئا؟، هل سنخلى عنهما حقا؟"

كان صوتها عاليا حتى إنه أسرع يلتفت حوله ليتأكد أن أحدا لا يتبعهما، وحينما تأكد أن الطريق خاليا نظر إليها كأنه يهم أن ينطق بشيء ولكن الكلمات لم تطاوعه، ولمحت دموعا في عينيه تأبى أن تذرف أمامها، والإحساس بالقهر يطل من عينيه فضمته وهي تقول، "حسنا، حسنا اهدأ، لا عليك".

تمالك "153" نفسه قبل أن يقول "دعينا نتحدث غدا".

ولم يزد عن هذا، ولم تضغط هي عليه، تركته ليرحل وما أن دخل بيته حتى ارتدى على فراشه وأنفجر باكيا، وكأنه يفرغ كل الضغط الذي تعرض له في الليلة الماضية، ولكن، ما لبث أن رأى وسط دموعه وجه البروفيسور أمامه، جاءه مبتسما يذكره بكلماته الأخيرة له وهو يقول "لم أعرف عنك يوما البكاء، ولا أحب أن أعرفه عنك، استمر في الضحك، حتى حينما تتألم أضحك"، وأخذت الجملة الأخيرة تعاد في عقله "حتى حينما تتألم أضحك"، "حتى حينما تتألم أضحك"، وبالفعل وجد نفسه في وسط بكائه ينفجر ضاحكا، أخذ يضحك بطريقة هستيرية حتى غلبه النوم، ونام دون أن يشعر.

وصباحا، كانت المدينة وكأنها أصابها حالة من الصمت، أو وكأنه هو أصابته حالة من الصمم، بكل تكاسل خرج وركب دراجته وقادها إلى العمل، حتى الصغار الذين اعتادوا استقرازه كل صباح تعجبوا حينما ركل أحدهم الكرة بوجهه ولم يحاول أن يتفادها كعادته، بل وكأنه لم يشعر بها من الأساس حينما ارتطمت بوجهه، وكادت سيارة أن تصطدم به حينما لم ينتبه إلى أن الإشارة حمراء وهو يعبر الشارع الرئيسي إلى مركز الأبحاث، أصدرت إشارات هذا الصوت

العال وقائدها يضغط مكابحها بكل قوته ليتفادى أن يصدمه, نظر إلى قائد السيارة الذي صرخ فيه وهو يلوح بيده في وجهه ولكنه عبر الشارع دون أن يهتم لما يقول.

وما أن دخل المركز حتى كان "1313" هو أول من وقعت عينه عليه, نظر إليه بكل استقراز وهو يبتسم فتجنبه وهو ينظر إلى السلم ويتذكر كيف كان صديقه يقفز درجاته كل صباح ليصعد إليها, ثم ألقى نظرة على المكتب الزجاجي المغلق الذي توجد بداخله صورة كبيرة للبروفيسور, وكأنه يتمنى لو كان هنا, ثم أكمل طريقه إلى مكتبه.

وبمكتبه تفاجئ بـ "224" في انتظاره, وبالطبع كان واضحا على عينيها إنها لم تذوق طعم النوم عاد ليلتفت حوله وهو يلوح "1313" يتجول بالخارج, فأسرع يقول "بالطبع لن يمكننا أن نتحدث هنا".

فابتسمت وهي تقول "صباح الخير أولا".

تعجب لهدوؤها الذي لم يتوقعه فأكملت "لتعرف إنه لا يوجد مكان واحد لنتحدث فيه أكثر أمانا من هنا".

عاد ليلتفت حوله قلقلها فقالت "اجلس وكفاك توترا, لا تقلق, فهو لم يأت اليوم".

عرف إنها تلمح إلى "31" قبل أن تكمل "وهنا لن يستطيع أحد أن يتجسس علينا كما تعرف".

كان يعرف جيدا أن ما تقوله صحيحا ولكن الجدران الزجاجية رغم إنها عازلة للصوت, وإنها عاكسة حيث وحدهم يمكنهم رؤية من بالخارج في حين لا يمكن لأي عين أن تراقبهما هنا, إلا أنها كانت تشعره وكأن جميع من بالخارج يستمعون إلى حديثهما, خاصة هذا الذي يتجول من حين إلى آخر حول المكتب.

وهنا صرخت, صرخت صرخة عالية للغاية أزعجته في البداية قبل أن تعود وتبتسم وهي تقول "هل شعر أحد بذلك؟"

نظر إليها وعاد ينظر إلى العاملين والمارين بالخارج الذين لم يلتفت أي منهم لما فعلته هي فقالت "أصرخ إذا أردت, صدقني لا مكان يمكنك أن تصرخ فيه مثلما يمكنك أن تفعل هنا".

نظر إليها فأشارت برأسها كأنها تشجعه على هذا فعلا, وكأنه هو أيضا كان بحاجة إلى ذلك, حاول في البداية فخرجت صرخته ضعيفة مكتومة فصرخت هي به "أعلى", فأطلق لصرخته العنان, وعادت هي لتصرخ معه, ليطردها كل الضغوط التي تجثو فوق صدريهما, ومن أن انتهيا حتى انفجرا ضاحكين, نوبة ضحك بعد نوبة الصراخ انتهت بابتسامة حانية منها وهي تربت على يده وتقول, "والآن لتجلس, لأخبرك بما توصلت إليه".

"لماذا تعتقد أن "31" تركنا نرحل؟"

هكذا بدأت هي كلامها, فنظر إليها متعجبا وكأنه لم يفكر في هذا الأمر, وحينما بقى على صمته أجابت هي:

"لأنه لا يخشى على نفسه منا شيئا, لأنه بكل بساطة يرى أن ليس بمقدورنا أن نفعل أي شيء".
هز رأسه وهو لا يصدق ما قالت, فقد فاجأته بتحليلها فأخذ يحك شعره بأظافره وهو يسألها:
"حقا؟"

"بالطبع, هل يمكنك أن تخبرني أنت ماذا بوسعنا أن نفعل؟"

شرد لثوان قبل أن يضحك كأبله وهو يجيب "لا شيء".

ضحكت بدورها وهي تقول "بالضبط, لا شيء".

قام واقفا وهو يتجول في الغرفة ويحك شعره بكلتا يديه هذه المرة وهو يتساءل "وإذا لم يكن بوسعنا فعل أي شيء, فماذا سنفعل؟"

"الكثير".

قالتها بكل ثقة, فنجحت في جذب انتباهه وهي تكمل "هم يصدقون أن ليس بوسعنا أن نفعل شيء, ونريدهم أن يظلوا على ظنهم هذا, أما نحن فعلى أن نفعل ما لا يتوقعونه أبدا".

"مثل؟".

"مثل البحث عن "52""

"و "111"؟", سألتها فأجابت على الفور:

"لن نصل إليه", تعجب من جملتها فأكملت:

"الوصول إليها أسهل, هم يحتجزونها فقط منعا لإثارة المشكلات, هم لا يريدون منها شيئا سوى إبقائها بعيدا, لكن الأمر بالنسبة لـ "111" مختلف, هم يريدونه, سيتحفظون عليه تحت حراسة مشددة, سيكون مراقبا ليل نهار, خروج "52" لن يضيرهم كثيرا, لكن هروبه هو يعنى فشل كل ما خططوا له منذ البداية, هل فهمت؟"

نظر إليها مندهشا وهو يسألها "وهل وصلت إلى كل في ليلة واحدة؟"

أجابته ضاحكة "بالطبع لا", عقد حاجبيه وهو لا يفهم ماذا تعنى فأكملت:

"لقد توصلت إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير, أولا, لا يمكننا أن نكون وحدنا, فلا يوجد لدينا وقت".

عاد ليسألها "بمن يمكننا أن نستعين؟"

"من يمكنهم أن يدخلوا البيوت كلها؟, من يمكنك أن تجد معهم أسرار الجميع؟, من يعملون بالمطابخ وينظفون الأروقة ويهذبون الحقائق ويستمعون إلى كل الأخبار؟"

عاد لمط شفتيه وعقد حاجبيه وهو يسألها "من؟"

وهنا أمسكت بكتفيه وهزته وهي تقول "أرجوك ركز معي".

فأمسك بيدها وهو يقول "صدقيني أحاول".

ابتسمت وهي تعود إلى تركيزها وتقول "المشوهون, علينا أن نستعين بأكبر عدد منهم ممن يمكننا أن نثق بهم لنعرف أين يخبئونها بالتحديد, ولن نجد غيرهم من يساعدنا".

"ولماذا يفعلون ذلك؟, أنت تعرفين فأغلبنا بلا أحلام, يتجنب المشكلات, ويحقد على الآخرين من أبناء عائلته إذا شعر أنهم أفضل منه, بمجرد أن نخبرهم أن الأمر يتعلق بـ "111" إلا وسيرفضون المساعدة فهم يكرهونه لأنهم يشعرون أنه أفضل منهم".

أسرعت تشرح له "بل الأمر يتعلق بنا جميعا، ما حدث لـ "111" لم يحدث له إلا لأنه مشوه، لأنه واحدنا منا، هم من جعلونا نحقد على بعضنا البعض ونرضى بما يلقونه لنا لأنهم يروننا أقل منهم، فصار من يختارونه ويكرمونه برفعه فوق الآخرين مكروها ويحقد الآخرون عليه، وأن الأوان ليتغير كل هذا، عليهم أن يساعدوا جميعا في هذا الأمر، فما حدث لـ "111" اليوم قد يحدث غدا لأي واحد منهم، أعتقد أنه سيرغب حينها أن نساعد أم أن نكتفي بالمشاهدة ونتركه يواجه ظلمهم وحده؟"

عاد لهز رأسه غير مقتنع وهو يقول "أنت تريدينها ثورة إذا وهذا أمر سيستغرق وقتا طويلا".
"كل ما أريده الآن أن يساعدونا لنعرف مكانها، ونحن سنخرجها، بمساعدتهم أيضا، أما هو فأعتقد من الصعب أن نصل إليه، لذا.."

وهنا نظرت داخل عينيه ونطقت جملتها بكل بطء لعلمها بأنه لن يستوعب كلامها "علينا أن نجعلهم هم يأتون به إلينا"، وهنا حدق بها وهو بالفعل لا يفهم ما قالته توا.

لم يتخيل ما تقوله، وهي لا تزال على محاولاتها لشرح الأمر له، مساءا كانا بالكوخ الذي يمتلكه أبيها على الشاطئ الواقع بأطراف المدينة، جلسا وهو لم يستوعب كلامها كما توقعت، كان يعيد عليها "ما تريدينه مستحيلا؟"

"ولكي نفاجئهم وينجح الأمر علينا أن نفعل شيئاً مستحيلاً".

صمت لثوان ثم قال "حسناً أعيدي على خطتك مرة أخرى".

عادت لنطق كلامها ببطء وهي تقترب منه وتقول "تقصد مرة عاشرة, حسناً, استنفار كاذب, علينا أن ننجح في إطلاق استنفار كاذب يجعلهم يخرجونه استعداداً لقذف لن يتم بالطبع, ولكنه حينها سيكون أمام أنظارنا, سنكون هناك في انتظارهم وحينها يمكننا أن نقلب الأوضاع كلها ونلوذ عنه, أو كما تحب أن تسميها أنت, ثورة".

ثم مضت تستفيض وتشرح, "علي أحدهم أن يطلق صفارات الاستنفار, حينها سيخرجونه إلى مركز التجمع, وسنكون نحن حينها هناك, مستعدين, وما أن يصبح بين أيدينا حتى سنواجههم".

قال مستكراً "نواجه من؟, أنت تحلمين, حدثيني عن أن نهرب, أن نذهب بعيداً, لكن مواجهة!, ثم هل تعرفين ماذا سيحدث في حال اكتشفوا من كان وراء هذا الاستنفار الكاذب؟"

"كفانا هروباً, ولذا علينا ألا نكون وحدنا, علينا أن نفتتح أكبر عدداً ممكن من المشوهين, صدقني لا أمل لدينا سوى أن يحدث هذا, وإلا لتنتس صديقك إلى الأبد, في هذه المدينة ما لا يغيره الزمن لا يغيره سوى الثورة".

فسألها بكل بلاهة "وماذا عن ما لا يغيره الثورة؟"

"لا يتغير أبداً, بل إنه يذهب إلى الأسوأ, أعلم إنه إذا فشلنا فمجرد تخيل ما قد يلحق بنا أمر مخيف, ولكن لا يوجد أمامنا حل آخر".

ولم يجد ما يقوله, كان يعلم أن فكرتها مجنونة للغاية, وخطيرة, ولكنها على حق, فلم يكن أمامهم حلاً آخر.

رأت الاستسلام في عينيه أخيراً لما أخذت تشرح فيه منذ بداية اليوم فقالت وهي تمسك بيده "والآن لنبدأ في وضع الخطوات التي علينا تنفيذها؟, فلا وقت لدينا, فإذا جاء استنفار حقيقي سنخسره فعلاً إلى الأبد".

وهنا أبتسم وهو يصغى لما تقول.

انطلق "153" مع أول خيوط الصباح على دراجته قاطعا الشوارع يتنقل بين البيوت والمصانع والمحلات والمكاتب, ليقابل أكبر عدد ممكن من المشوهين الذين يثق بهم, تأكد جيدا من أن أحد لا يتبعه, وتعجب من أنه ليس مراقب, لقد كانت "224" على حق حينما قالت إن "31" أطلقهم لأنه متأكد أن ليس بوسعهم فعل شيء, لم يفهم هل إلى هذا الحد يعمى أمثاله غرورهم أم إلى هذا الحد يراهم عاجزين؟

كان يعرف أن أغلب المشوهين يغلب عليهم الجبن والخوف, ولكنه يعرف أنهم لن يشوا به, فقليل منهم من قد يفعل ذلك لينال مكافأة أو ترقية أو امتياز في عمله ومثل هؤلاء معروفين جيدا ولذلك تجنبهم, كان يعرف أيضا أن الأمر ينطوي على مخاطرة كبيرة إذا قام أحدهم بنقل ما ينوون على فعله, ولكن كما قالت هي "لا يوجد أمامنا حل آخر", كما إنه لم يكن يخبرهم بالجزء الأهم في العملية كلها, لا أحد سيعرف شيئا عن الاستنفار الكاذب سواهما ومن سيقوم بالأمر فقط, عدا ذلك هو لا يريد سوي أن يجمع أكبر عددا منهم في صفه.

كانت الفكرة مجنونة حتى أن أغلب من قابلهم كانوا يهزون رؤوسهم استنكارا ورفضاً, ولكنه أخبرهم أن يفكروا جيدا, كما أخبرهم أن يتحدثوا بدورهم مع مشوهين آخرين يثقون بهم وينقلوا إليهم الفكرة, وهكذا أستطاع أن يصنع شبكة اتصالات عنقودية في وقت قصير, فكل واحد يخبره يمكنه أن يصل إلى عشرين أو ثلاثين آخرين, وهكذا انطلقوا جميعا ليحدث كلا منهم من يعرف سواء ضاحكا أو ساخرا أو مشجعا أو مشككا, ولكنه نجح فيما يريد, في أن تنتقل الفكرة وتصبح محل جدال بينهم, أن يتناقشوا في الأمر بينهم سواء بالقبول أو بالرفض, بالمدح أو بالذم, يعني إنه نجح فيما يريد.

ومع نهاية اليوم أنتقل "153" ليتم المقابلة الأهم, في مبنى أثرى قديم في وسط المدينة لا يشبه تلك المباني الأخرى الموجودة, مبنى بسيط يتكون من طابق واحد يعلوه بوق قديم عملاق, يقف على

بوابته الخشبية العتيقة حارسي أمن ما أن شاهدها يقف بالخارج حتى فتحا له وهما يمزحان معه, فسألها عن صديقه "333" أهو موجود؟, فأجاباه بالإيجاب وتركاه يدخل لملاقاته.

دخل إلى ممر قديم صغير قاده إلى بضعة درجات, صعدها ليجد أمامه بابا خشبيا صغيرا آخر, طرق عليه طرقتين وما أن سمع صوت صديقه يخبره بالدخول حتى فتح الباب ودلف إلى الغرفة المليئة بالأجهزة التي تصدر أشارات منتظمة, وعلى مقعد خشبي هزاز كان صديقه جالسا يقرأ كتابا.

"333" هو مشوه آخر ولكنه صغير الرأس, يكاد رأسه لا يكون موجودا مقارنة بحجمه, كان يرتدى نظارة أكبر من رأسه نفسه مثبتة على كتفيه حتى يتمكن من الرؤية, قام ضاحكا وهو يمازح "153" قائلا "لك وقت طويل لم تأت إلى هنا يا ضخم الرأس".

فرد عليه "153" بالضحكة نفسها "لما تصر على أن أذكرك أن ضخامة رأسي تعنى بالضرورة أن عقلي أكبر من عقلك يا ذا العقل القزم".

وأحتضن كل منهما الآخر قبل أن يدعوه "333" إلى الجلوس ويقول:

"بالطبع لم تقطع كل تلك المسافة لتطمئن علي؟"

كانت ملامح "153" والتوتر الذي يظهر عليه يشيان بأنه قد جاء بالفعل لخطب ما, ضحكته نفسها التي أطلقها قبل قليل كانت هادئة على غير المعتاد, فرد عليه "بالفعل, جئتكم في أمر لا يمكن لأحد أن يساعدني فيه سواك".

انتبه له "333" وهو يقول "إذا كان بوسعي فلن أتأخر عليك بالتأكد, هات ما عندك".

وأخذ "153" يقص عليه القصة كلها, وبعد أن انتهى, طلب من صديقه ما يريد, فقام "333" وهو لا يصدق ما سمعه بأذنه منه توا.

"لقد جننت, بالتأكيد جننت, هل تعرف ماذا يعنى أن أعلن عن استنفار كاذب؟؟, تريد مني أن أرسل الإشارات إلى الشرطة والإسعاف ومركز التجمع لتخرج السيارات والجنود ويجمعون من سيخرجون إلى القذف وتخرج المدينة كلها ويأتي الأعلام والصحفيين ثم يكتشفون أن شيئا لن يحدث؟, سينكشف أمري حينها وسأحكم, تريد مني أن أفعل ذلك على أمل أنكم ستنجحون في الوقوف في وجوههم حينها والثورة عليهم؟, أتراهن على مجموعة من الجبناء لن يغيروا شيئا؟, نحن جبناء يا صديقي, جبناء, وإذا كان بإمكانك أن تراهن على ذلك فكيف لي أن أراهن أنا بوظيفتي وحياتي؟"

كان منفعلا وهو لا يتخيل ما يريده "153" منه, فأمسك الأخير بيده محاولا تهدئته وهو يدعوه ليجلس من جديد ويقول "أنظن أن من يفعلون كل ذلك لمساندة صديق لهم واحد منهم في محنته لن يدافعوا عنك بحياتهم مثلما نريد أن نفعل مع "111", هو اليوم في مأزق فهل تريدنا أن نتخل عنه خوفا على حياتنا التي نحياها في ذل نفعل فقط ما يأمرونا به؟, ومن أجل وظائف أقصى أمانينا فيها أن ننال رضاهم, لا نترقى فيها كما يفعلون, لا يخرج منا مسئولين أو ضباط أو باحثين

وغيرها من الوظائف التي احتكروها لأنفسهم وحدهم وحرمت علينا لأننا مشوهون, نكتفي بخدمتهم يا صديقي, هل هذه هي الوظائف التي تريدنا أن نحافظ عليها؟"

قال "333" وهو على انفعاله نفسه "منذ زمن بعيد ونحن على هذا الحال, هذا هو حالنا وحال أبائنا وأجدادنا فما الذي تغير اليوم؟"

"ما تغير هو أن واحد منا في مأزق, فماذا إذا تعرضت أنت لمأزق مشابه غدا؟, ألن تحتاج إلينا كي نساندك؟"

"هو أحمق, هو من عرض نفسه لهذا المأزق حينما كان يمكنه أن يتجنب كل هذا, لن أفع يوما في مأزق كهذا لأنني لست أحمقا مثله, لست أحمق".

"لن تعرض نفسك لهذا الموقف لأنك لست أحمق أم لأن ليس لديك الشجاعة اللازمة لذلك؟, ليس لديك طموح وراض بما أنت فيه؟, لا حلم لك تريد تحقيقه وتتمنى لو أن نتكاتف جميعنا معك حتى تحققه؟, في هذه الحياة البعض يعيش, والآخرين يكتفون بالمشاهدة والانتقاد والسخرية, كلكم تنتقدوه لأنه أختار أن يعيش في الوقت الذي لم يحلم أحدكم فقط بأن يفعل ما تجرأ هو على فعله, أليس هذا صحيحا؟"

قالها وصمت لثوان وهو ينظر في عيني "333" الصغيرتين اللتين بدتا من خلف النظارة عملاقين وهو يعود ليقول "أرجوك يا صديقي, أرجوك, لا أمل لنا في التغيير الذي نتمناه بدونك, لا أمل لنا في إنقاذه بدونك".

صمت "333" هو الآخر لثوان قبل أن يحسم أمره ويهز رأسه نفيا "لا يمكنني سامحني, لا يمكنني مساعدتكم".

عاد "153" محاولا إقناعه "زر واحد ستضغطه سيجعلهم يهرعون, زر واحد لاستنفار نريد أن نخبرهم به إننا نعيش معهم في عالم واحد, وإننا يحق لنا أن يخرجوا من أجلا كما يخرجون لتوديع بطل منهم يخرج من أجل خلود محرم علينا, إنه استنفار من أجل أن يفيقوا ويكفوا عن معاملتنا بهذه الطريقة, كل ما نريد أن نخبرهم إياه إننا هنا".

وسكت "333", لم يجب بكلمة, فربت "153" على كتفه وهو يقول "فكر جيدا وحكم عقلك وقلبك, ستجد أن الأمر يستحق ضغطة زر واحدة, سأرسل لك رسالة أخبرك فيها متى عليك أن تفعلها, وأنا على يقين إنك ستفعلها, لأنك منا نحن ولست منهم".

قالها وأنصرف, وهو يتمنى أن يقتنع صديقه فعلا بما يريدون فعله.

لم تكن "224" أقل نجاحا منه, استطاعت هي الأخرى أن تصل إلى الكثيرين, والكثيرات, وكانت أهم ما تؤكد عليه, "نريد أن نعرف مكانها, لن نطلب منكم أكثر من ذلك", استطاعت أن تجعل المشوهين كلهم يبدون وكأنهم جيش من النمل يتحرك في كل أنحاء المدينة للحصول على معلومة واحدة عنها.

كانت هذه هي مهمتها, وبالفعل ومع آخر النهار هاتفته ليلاقئها على الفور بالكوخ, وهناك, وصل قبلها واستراح منتظرا إياها, ولم تتأخر هي كثيرا, وجد الباب ينفتح وهي تدخل ضاحكة فرحة وما أن دخلت حتى ضمته وهي تصرخ "لقد نجحنا, نجحنا في نهار واحد فقط, أصدقت الآن أن بإمكاننا أن نفعل الكثير؟"

نظر إليها وهي يسألها فرحا "عرفت مكانها أليس كذلك؟"

قالت بكل خيلاء "نعم".

ثم اعتدلت وهي تتحدث بجدية وتقول "لن تصدق أين ألقى بها, إنه يتحفظ عليها بمستشفى عسكري للأمراض العصبية حيث يتم معالجة المذنبين المرضى نفسيا".

نظر إليها مستاءا قبل أن تكمل وهي مبتسمة "أما الخبر الجيد فهو أن لدينا ثلاثة من المشوهين يعملون هناك, جميعهم مستعدون للمساعدة".

قالت لها وهي تغمز بعينها اليمني فقال "حسنا ومتى سنتحرك؟"

فألت له "غدا عصرا, علينا أن نتحرك غدا عصرا".

دق قلبه قلقلًا وبدا التوتر على وجهه وهي تسأله, "وأنت ماذا فعلت مع صديقك؟"

سكت لثوان ثم قال "أعتقد أنه سيفعلها".

نظرت إليه مستنكرة وهي تقول "تعتقد؟، هذا أمر لا يحتمل الاعتقاد، إما معنا أو لا، لا يمكن أن نراهن على اعتقادك".

قال بعصبية "لقد حاولت، وهو خائف، ماذا علي أن أفعل؟، لو كان بيدي لقيدته وانتظرت هناك وأتممت الأمر بنفسني ولكن ليس هناك من يعرف آلية وخطوات إطلاق الاستنفار سواء، حسنا لنعتبر أنه رفض، ماذا ستفعلين؟، ألن تكلمي خطتك حينها؟"

سكنت بدورها وهي تفكر، فهو على حق، وهنا ربتت على يده وهي تقول "معك حق، سنتحرك غدا لإنقاذها، لنرسل إليهم جميعا الآن أن التحرك غدا عصرا، ولنا أمل أن يفعلها، فنحن بحاجة إليه".

وجلسا سويا وقد أمسك كل منهما بهاتفه ليرسل إلى الآخرين رسالة بموعد ومكان التجمع، وجعل "153" الرسالة الأولى لصديقه "333" يخبره فيها أن عليه أن يطلق الصفارات غدا عصرا، وهو يتمنى أن يفعلها حقا، وفي أغلب البيوت، كان كل مشوه يستقبل الرسالة نفسها، "غدا عصرا".

يقال أنك إذا أحببت أحدهم بقوة، وأحبك هو الآخر بالقوة نفسها، فإن الحب قادر على أن يجعلكما قريبي الشبه من بعضكما البعض، هو لا يحول شكل أحدكما إلى شكل الآخر، لا، هو فقط يقوم بالجمع بين كل ما أنتما عليه من ملامح وصفات ثم يمزجها سويا قبل أن يعيد توزيع هذا المزيج من جديد بينكما، ليرى كلا منكما نفسه في الآخر، ليشعر بما يشعر به الآخر، مهما كانت المسافات، وهذا الأمر ليس محض خيال، وإنما يكمن سره كله في مجموعة الأوامر التي يمنحها

العقل لعضلات الوجه, فإذا انقبضت العضلات بالطريقة نفسها, حينها سترسم الابتسامة نفسها, والتكشيرة نفسها, والضحكة نفسها, والألم نفسه على وجهين.

ومن أقصى المدينة إلى أقصاها, كانت دمة واحدة تسيل على خدين, كان يمكنك أن ترى هذا بوضوح, الدمة نفسها التي تلمع في عينيها كانت تنزل من عيناها لتسيل على خده, أو تنزل من عينه لتسيل على خدها, حزن واحد في عينيها التي كانت لمن يراها وكأنها العين نفسها, وكأن استسلاما واحدا قد حل بهما, كان مقيدا, وكانت وكأنها قيدت بالقيد نفسه.

كان كلا منهما يعزى نفسه في سجنه بذكرياتهما سويا, وتعجبا, كيف للذكريات الرقيقة أن تترك حزنا بهذا الثقل?, ربما لشعورهما بأنها لن تعود مرة أخرى, وهذا هو أكثر ما يؤلم, وكلما زاد هذا الألم كلما أعتصر الحزن الثقيل قلوبهما أكثر لتدمع عيناها أكثر وأكثر, وكأن هذه الدموع ليست سوى عصارة القلب.

وفي هذا الوقت جالت برأس "111" فكرة سخيفة دفعته للابتسام سخرية من حاله ومما وصل إليه في سجنه هذا, إذا كان الحزن يعتصر قلبه فيبكي, فكيف كان للدموع أن تكون بهذه الرقة والشفافية والنقاء?, تساءل لوهلة, لما لا يبول الحيوان المنوي منهم من عينيه مثلاً?, أليس لهذا أن يكون أكثر واقعية?, يعتصر الحزن القلب المثقل بالألم والوجع فتخرج العصارة صفراء قذرة لا تطاق بقدر قذارة هذه المشاعر وبقدر ما لا يطيقها هو الآن, بالطبع هذا منطقي أكثر, أما أن تكون عصارة كل هذه المشاعر السيئة بهذا النقاء وهذه الرقة فهو أمر غير مفهوم بالمرّة.

ليومين متتالين ظلت "52" على حالها, تكورت في فراشها ترفض الطعام وترفض الحديث, كان والدها قد أنقطع لها علّه يطمئن عليها, ولكنها كانت لا تجيبه, يجلس إلى جوارها ويحاول أن يتحدث إليها ولكن دون فائدة, وإذا حاول أن يلمسها كانت تنكمش أكثر في نفسها, شق عليه أن يراها على هذا الحال حتى إنه راجع نفسه أكثر من مرة وفكر أن يحررها, ولكن كيف له أن يحرر "111" هو الآخر?, لقد أصبح في قبضة ابنه ولن يتركه من قبضته تلك أبدا, ولذلك قرر أن يستمع إلى ما أكده ابنه والطبيب من إنها بعد وقت ستجتاز صدمتها وتعود إلى حياتها.

هذا ما عرفته "224" من أصدقائها بالمستشفى الذين يعمل أحدهم كحارس أمنى وآخر بالمطبخ وثالث كممرض, وكان هذا الممرض هو من أستمع إلى بضعة محادثات ومناقشات بين الأب والابن والطبيب بمكتب الأخير, ونقل إليها كيف أنفعل الأب حينما وجد ابنته على صيامها عن الطعام والحديث ولم يتحمل ذلك, وكيف طمئنئته الطبيب, وإنه في النهاية استسلم لما أخبره به الابن من أن ليس هناك أي مجال للتراجع فهي سمعة العائلة كلها.

المعلومة الأهم التي عرفتها "224" هي أن الأب يغادر المستشفى عصرا إلى البيت ليستحم ويغير ملابسه ويحضر بعض ما يلزمه ويعود مساءا للاطمئنان على "52", وفي الوقت نفسه, هذا الوقت هو راحة الأطباء, يأخذون فيه قيلولة بغرفهم بالأعلى, وكان هذا ما يلزمها.

فتحت لها الأبواب بصحبة "153" وكأنهما يمران كل يوم من هذه البوابة, وكانا قد تنكرا بزي ممرضين, والحارس بالبوابة يغمز لهما وهو يستدير ويهز مؤخرته لتفعل "224" الأمر نفسه فكلاهما كان ذيله قصيرا للغاية حد إنه يكاد لا يكون موجودا, وضحكا لذلك.

وبالداخل قادهما الممرض صديقهما إلى الممر الذي يقود بدوره إلى الغرفة التي احتجزوا "52" بها، وبالممر كانت الغرف على الجانبين، وأمكنهما أن يطالعا المرضى بداخلها مابين من جلس هادئا ومن كان نائما في مثل هذا الوقت ومن اقتربوا من الأبواب ليطالعوهم بدورهم، مما جعل "153" يخاف من نظراتهم وينكمش في الممرض وهو يسير إلى جواره، كان أحد هؤلاء المجانين بغرفته يهتف "أنا بطل" وهو يقفز في الهواء ليصطدم بكامل رأسه بالحائط، قبل أن يسقط أرضا ويعود لفعل الأمر نفسه، كان يبدو أن حلم البطولة والمرور إلى عالم الخلود قد سيطر عليه حد إنه فقد عقله.

ومع نهاية الممر أخرج الممرض البطاقة الممغنطة التي ما أن أدخلها بالجهاز المعلق خارج الغرفة حتى أنفتحت الباب، كانت "52" على حالها وقد دفنت رأسها في ذيلها وهي تظن أن من بالباب هو أحدهم قد جاء ليحضر طعاما أو يجلب شيئا فلم ترفع رأسها حتى لتتظر من القادم، ولكنها فوجئت بصوت تعرفه جيدا يغنى ويقول "لست وحدك، فأنا معك".

رفعت رأسها وهي لا تصدق عينيها حينما وقعت على "153" و "224" وهما يقفان أمامها والأول يغنى بصوته القبيح الذي بدا في هذه اللحظة لها وكأنه أكثر الأصوات عذوبة في العالم. "كيف وصلتما إلى هنا؟"

قالتها متعجبة، فمدت "224" يدها وهي تساعد للزول من على فراشها وتقول "لا وقت لدينا لذلك هي بنا".

عادت "52" تسأل وهي تتحرك معهما "إلى أين؟"

فدفعتها "224" برفق إلى خارج الغرفة وهي تقول "قلنا لا وقت لدينا، أجلى أسئلتك هذه كلها فيما بعد".

خرجوا من الغرفة وهم يعلمون أن الكاميرات قد سجلت كل شيء، وأن أبيها والأطباء حينما سيعودون سيعرفون ما حدث، ولذا وقف "153" أمام إحدى الكاميرات برأسه الكبير وهو يلوح بكلتا يديه ويقول "يمكننا أن نفعل الكثير، يمكننا أن نفعل الكثير"، قبل أن يعدو خلفهم ليلحق بهم حيث كانوا قد اجتازوا الممر، قطع الممر قفزا وهو ينظر إلى المجانين على الجانبين مرة أخرى في طريقه للخروج ويخرج لهم لسانه وهو لا زال على خوفه منهم.

وعلى باب المستشفى التحق بهم الممرض والحارس والطباخ وركبوا جميعا السيارة ليتحركوا إلى حيث سيتجمع المشوهون كلهم، "224" على مقعد القيادة وإلى جوارها "52" والرجال الثلاث بالخلف

وقبل أن تدير "224" مفتاح سيارتها، سمعوا جميعا صوت لا يمكن أن يخطئوه أبدا، "إنه صوت استنفار"، قالت "224" وهو تلتفت بكل سعادة إلى "153" الذي صرخ فرحا حين بدأت الأضواء والصفارات في الانطلاق، "لقد فعلها، لقد فعلها حقا"، ونظر إلى ساعته وهو يكمل "مبكرا بحوالي نصف ساعة ولكن لا يهم، المهم إنه فعلها هيا بنا".

كانت الفرحة تقفز من ملامح "224", و"52" تتساءل بكل دهشة "ماذا يحدث؟", وهنا تحركت "224" بالسيارة في حين قال "153" "سأخبرك بكل شيء", انتقلت سعادتهما إليها وهي تضحك وتقول "قبل أي شيء, أنا أتصور جوعا", فناولتها "224" حقيبة صغيرة كانت قد وضعتها إلى جوارها وقالت لها "كنت أتوقع ذلك, ستجدين هنا كل ما تحبين", وانطلقوا جميعا, وبينما كانت تأكل كان "153" يخبرها بكل شيء.

انطلقت الصفارات والإنذارات في كل مكان لتعلن عن الاستعداد للقذف, انتشرت في الشوارع السيارات الأمنية لجمع الخارجين في هذا القذف, ووسائل الإعلام تلتقط الصور, الجماهير تملأ الشوارع احتفالا بين التهتافات ومشاهد الوداع المعتادة, والجميع فرحون.

كان "153" قد أختار أشخاص بعينهم بكل بعناية وجعل كل منهم قائدا مسئولا عن مهام بعينها, ومع انطلاق الاستنفار كان على كل قائد أن يبلغ المجموعة المسئول عنها بكل شيء, وبذلك أصبح وحدهم المشوهين على علم بأن كل هذا خدعة, وحدهم كان يتحركون عكس كل الاتجاهات, فعليهم السيطرة على كل شيء قبل أن يكتشف الجميع الحقيقة.

وبعيدا، كان "111" يخرج من المبنى الأمني حيث تحفظوا عليه إلى جوار "31"، وقد قيد معصماهما في قيد واحد، فلم يكن "31" ليطمئن عليه مع أي عسكري آخر، وقبل خروجهما من الباب، انحنى "111" ليلتقط وردة من حديقة المبنى، توقف لثوان وهو يرى وجهها بهذه الوردة، وكم تمنى لو كان باستطاعته أن يهديها هذه الوردة الأخيرة، وضعها بجيبه حينما هز "31" القيد لينتزع من أفكاره ليكملا طريقهما إلى الخارج، وهو يهز رأسه ويبتسم ابتسامة ساخرة منه ويقول "أسف لإيقاظك من أحلامك ولكن لا وقت لدينا للأحلام".

وبالخارج كانت هناك سيارتان في انتظارهما لتقلهما إلى مركز التجمع، صعدا إلى واحدة ليجلسا متجاورين في المقعد الخلفي، بينما تبعتهما الأخرى للحراسة، ودون أن ينظر "31" له قال:

"هل حلمت يوما أنك حينما ستخرج إلى القذف ستكون ثاني قائدين؟، أن تتقدم الجموع وتقودهم إلى المجد، أعلم إنه مجدا لن تصيبه، ولكن سيخلد اسمك ضمن من قادوا الجموع في الخروج إلى قذف، وأعتقد أن هذا اعتذار كاف مني على كل ما حدث، لقد منحتك مجدا لم تكن لتتأله يوما ما".

ولم يجبه "111" بأي شيء، كان مستسلما تماما لكل ما يحدث له.

وصلت السيارة، إلى مركز التجمع، وأبتسم "31" له وهما يدخلان من باب الشخصيات الهامة ويقول "أبواب لم تكن تحلم بالمرور منها يوما ما، وأماكن لم تكن تفكر حتى في أن تطأها قدمك، أرجو أن تتذكر هذا".

"وهل تعتقد أن هذا كافيا؟" قالها "111" دون أن ينظر إليه أيضا وهما يتقدمان في قيد واحد لإتمام الإجراءات والجميع ينحني لهما في احترام، فرد عليه "31" "وهل تعتقد أنني اهتم لذلك؟، استمتع باللحظة، استمتع بانحناء القامات لك، إنه شعور لم تختبره من قبل ولم يكن يتسن لك أن تختبره، اليوم أنت قائد، لقد جعلت منك قائدا".

لا ينكر "111" إنه كان مأخوذا بتلك الطريقة التي يعاملوه بها، رغم القيد الذي يقيد معصميهما، ورأى "31" ذلك باديا في عينيه مما زاد من إحساسه بالزهو أكثر.

تسلم كل منهما خوذته وحقيبة ظهره قبل أن يقفا أمام باب لغرفة زجاجة كتب عليه بالخط الأحمر "غرفة انطلاق القادة"، كانت مبردة بالكامل حيث تتصاعد بداخلها الأبخرة الباردة، وبعد أن تم التأكد من إحكامها إغلاق الخوذتين جيدا فتح باب الغرفة ودلفا داخلها وأغلق الباب ببطء خلفهما، وداخل الغرفة ألقى "111" نظرة أخيرة على الخارج، على الوجوه التي تجمعت خلف اللوح الزجاجي للغرفة وهو يقف أمام باب آخر كتب عليه هو الآخر "باب الخروج"، ثم انطلقت صفارة إنذار أخرى والصوت المعدني يردد "تحذير، سيتم فتح الباب المؤدى إلى الخارج، يرجى مراعاة فروق التهوية ودرجة الحرارة حتى لا تتعرضون للأذى"، "سيتم فتح الباب بعد خمس ثوان، أربع، ثلاث، اثنتان، واحد".

وفتح الباب، وتقدم كلاهما وقد نسي "111" كل ما جرى، فقد كان المشهد مهيبا، عالم آخر عبارة عن أنبوب طويل لزج أخذت السوائل تخرج من جميع جوانبه وهما يقفان في المقدمة، وخلفهما الملايين، ملايين أخذت تحتشد وتتجمع وهي تدخل من باب آخر خلفي بعيد، لم يصدق أنه دخل توا من باب القادة، باب الكبار.

أخذ يتابع المشهد منبهرًا بكل ما يرى، يستمع إلى الحماس والهتافات التي تصم الأذن، والفرقة الموسيقية المصاحبة تعزف بكل حماس موسيقاها لتتعالى معها الصيحات أكثر وأكثر، والمصورون والإعلاميون المصاحبون للحدث ينتقلون ليصوروا كل هذا حيث يذاع بثًا حيًا على كل من بالمدينة، كان قلبه يدق بقوة لكل ما يرى.

وفي الخارج، وسط الزحام وأمام بوابة مركز التجمع، وصلت سيارة "224"، ونزل منها الممرض والحارس والطباخ وهما يخبران "153" إنهما سيسبقان إلى الميدان الذي سيبدأ منه المشوهون التحرك، ثم أخذوا يشقون الصفوف المتراسة التي حضرت لمتابعة الحدث الأهم، في حين تحركت "224" و "52" إلى داخل المركز، لم تتخيل "52" أن الباب سيفتح لهما بهذه السهولة، ففي أوقات أخرى كان هذا الأمر مستحيل، ولكنها فوجئت بحارس قصير للغاية يغمز بعينه لـ "224" وهو يفتح الباب، وهذا بعد أن أخبرهما "153" إنه سيذهب لمتابعة حركة باقي المتجمعين، كانت مهمة "224" و "52" واضحة ومحددة، تحرير "111" بمساعدة من أتفق "153" معهم بالداخل ثم الانضمام للجموع.

وما أن همّ "153" بالتحرك هو الآخر حتى وجد يدا تحط على كتفه وسط الزحام وتمسك به، واستدار ليجده "333" وهو يلهث بشدة، كان من الواضح عليه إنه قطع طريق طويلا جريا، ابتسم "153" له وهو يحتضنه بقوة ويقول "شكرا لك يا صديقي، شكرا لك، كنت على ثقة بأنك لن تتخلي عنا وستفعلها".

وبنظرات مترددة ومرتبكة، قال له "333":

"ولكني لم أفعلها يا صديقي".

فنظر إليه "153" وهو لا يفهم ماذا يقول وسأله "ماذا تعني؟"

نظر "333" إلى الأرض وهو يخبره، "أعني أن الاستنفار والصفارات والإنذارات حقيقية، هناك قذف بالفعل".

واتسعت عينا "153" وهو مصدوما بما سمع.

"لقد حاولت الاتصال بك كثيرا ولكنك لا تجيب".

رفع "333" صوته وهو يحاول أن يشرح لصديقه الذي خبط رأسه بكف يده وهو يقول "لقد كنت أجرى العديد من الاتصالات وأرسل للآخرين ليتحركوا بعد أن سمعت صفارات الاستنفار، وفرغت بطارية الهاتف تماما بعدها"، وضع "333" يده على كتفه وهو يخبره "ليس هناك وقت

لذلك، أظن أن عليك أن تفعل شيئاً ما"، كان "153" يحاول استيعاب الأمر، نظر إلى البوابة التي عبرتها "224" ومعها "52" توا وعيناه تتسعان أكثر، فهما في خطر، إذا دخلا لتحرير "111" لن يخرجوا، سيتم القذف بهما إلى الخارج، وهنا أخذ يعدو نحو البوابة تاركا "333" خلفه، قبل أن يتذكر شيئاً ما فيعود سريعا إليه ويسأله:

"أريد أن أعرف شيئاً واحداً، إذا لم يكن هناك قذف بالفعل، ولم يكن للاستنفار أن يحدث، أكنت ستساعدنا؟، أكنت ستضغط الزر؟"

وأجاب "333" على الفور وهو يبتسم "نعم يا صديقي".

وأحتضنه "153" بقوة قبل أن يعدو نحو مركز التجمع.

وبالداخل كانت "224" قد شرحت لـ "52" كل شيء، سيمر ثلاثة رجال كأنهم أحد هؤلاء الخارجين في هذا القذف، وبالداخل سيتم تحرير "111" وسيعودون به، وأصرت "52" أن تدخل معهم، وكانت "224" تعرف صديقتها جيدا، كانت تعرف إنها ستطلب ذلك، وإنها لن تتراجع عن طلبها.

وكالملايين التي اصطفت قبلهم في طوابير، وقفت أمام الرجال الثلاث وتسلمت خوذة وحقيبة ظهر واستمعت إلى التعليمات، ومشوه آخر يبتسم إليها وهو يسجلها لديه ويتلفت حوله قبل أن يقول بصوت خافت وهو يميل نحوها ويغمز "لست وحدك فأنا معك".

وابتسمت "52"، لقد أختار "153" هذه الجملة تحديدا لتكون كلمة السر التي يعرفون بها بعضهم البعض.

وقفت لحظات أمام الباب وقلبها يخفق بقوة، والمشوه يطمئن على أنها أحكمت إغلاق خوذتها قبل أن يتركها لتمر، ومرت لتجد أمامها مشهدا ساحر يأخذ العقول والنفوس، ومن خلفها دخل الثلاثة الآخرون الذين ذهلوا بدورهم من روعة المشهد وأحدهم يقول:

"كيف سنصل إليه في هذا الزحام؟"

وأجابت بكل حزم وهي تتحرك إلى الأمام "علينا أن نفعل ذلك".

وانطلقوا بين الجموع يشقون طريقهم، وفي الوقت الذي أخذ فيه الباب خلفهم يغلق وصفارات الإنذار الداخلية والأضواء الحمراء تنطلق داخل هذا الأنبوب، وصل "153" لاهثا إلى "224" التي كانت تقف بالخارج، وحينما تعجبت وهي تسأله عما أتى به وعلى الحال الذي يبدو عليه؟، لم يقل وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة سوى "الاستنفار، الاستنفار حقيقيا".

ولم يزد، نظرت هي إلى الباب الذي أغلق توا والذي يحتجز "111" و "52" خلفه، نظرت بكل رعب وهي تعلم إنها ستفقداهما إلى الأبد، وانطلقت تصرخ في العامل "افتح الباب، افتح هذا الباب"، ولكنهم أمسكوا بها وهم يخبرونها أن هذا الأمر أصبح مستحيلا، وأخذت تضرب الباب بكلتا يديها وهي تبكي، وأحتضنها "153" فدفنت وجهها في صدره ودموعه تنرف هو الآخر في صمت على صديقيه.

وبالداخل كان كلا من "111" و "31" يقفان في المقدمة وعيونهما معلقة بالنور الذي يتسلل من الخارج عبر الفتحة التي يقفون أمامها مباشرة, حينما هوى في الزحام سيف على القيد الذي يربطهما ليفصل بينهما, واستدار "31" فإذا بثلاثة يحيطون به وكل منهم يمسك بسيف, وقبل أن يستوعب ما يحدث, ركله أحد الثلاثة بضربة قوية من ذيله ليلقى به إلى الخارج, وكان آخر ما رآه وهو يسقط, "52" وهي تمسك بيد "111" الذي لم يصدق بدوره وهي تأخذه لينطلقا عائدين باتجاه الباب وهي لا زالت على ظننها بأنه سيفتح وينطلقوا خارجا ليكملوا خطتهم, كنت تصرخ بأعلى ما في صوتها و السوائل تتناثر تحت أقدامهم "لست وحدك, فأنا معك".

كانت تضحك فرحة, وهو لا يصدق بعد أنها هنا وتحرره من قبضة أخيها, كانا يجريان ويشقان الجموع المتحمسة التي أخذت تنتظر إليهم بتعجب, وهم لا يفهمون كيف جرى هذان الاثنان بعكس الاتجاه؟

وفجأة اهتز كل شيء, انقبضت جدران الأنبوب وأخذ يهتز بقوة.

وفى الوقت الذي كان فيه المشوهون يصرخون بالخارج ويجرون في الميادين محطمين كل شيء ومعلنين غضبهم وسيطرتهم على المدينة, كانت الجموع بالداخل تصرخ فرحا بكل حماس وجنون, بينما "52" تصرخ رعبا و "111" يحتضنها, وهم يندفعون بينهم رغما عنهم إلى الخارج, حيث يتم قذفهم.

ظلام تام لا يخترقه سوى شعاع ضوء ضعيف يأتي من الفتحة الكبيرة البعيدة العالية بالكاد يكشف عن كتلة جسديهما السوداء, لم تترك يده, ولم يتخل عنها, رغم الزحام والاندفاع والتخبط ظل كل منهما ممسك بالآخر حينما ارتطما بقوة بالأرض التي سقطوا عليها, وكان الارتطام قوي جدا حد أنه ألم جسديهما, وظل كل منهما ممسك بيد الآخر وهما مطروحان أرضا دون أن يبرحا مكانيهما.

ظلال أخرى سوداء كانت قد اندفعت بالقوة نفسها, كلما هبط واحد منهم قام مسرعا ليسبق الآخرين, لم يكن يسعهم الانتظار لنيل المجد الذي لطالما حلموا به, حتى المشوهين منهم الذين كانوا على علم أنهم لا نصيب لهم في هذه المعركة, أخذوا يسرعون بكل ما فيهم من قوة لمشاهدة هذا الحدث على الأقل, فلا أحد منهم يريد أن يموت بالطريق.

وفى وسط هذا, كان كل منهم يفتح حقيبته بمجرد هبوطه ويخرج منها مصباح يشعله سريعا وينطلق حتى بدأ النور يكشف المكان كله, وادي واسع يتخلله العديد من المرتفعات والمنخفضات الناعمة واللينة واللزجة.

وبينما يسرعون ليتقدموا, انقبضت إذ فجأة جدران هذا الوادي لتلفظهم إلى الخارج مرة أخرى كبركان يثور, أمسك "111" بيدها جيدا وهو يتعلق بيده الثانية بالمرتفع القريب إليه ليتدلى جسديهما في الفراغ بينما تندفع الملايين إلى الخارج وسط صرخاتهم المدوية, كل من تمكن من أن يتعلق بأي شيء لتفادى الخروج إلى الخارج المجهول تعلق, قبل أن تهدأ الحركة تماما, ولم يتحرك أحد, ظلوا على حالهم تحسبا لأي حركة مفاجئة أخرى دون أن يحدث شيء, وحينما أطمئن أحدهم وترك يده بكل حذر وسار بخطوات بطيئة دون أن يحدث شيء, أسرع يكمل الطريق, وتبعوه جميعا, ولم يتحرك أي من "111" و "52".

وشياء فشيء, اختفت الضوضاء والجلبة التي أحدثها الآخرون وهم يبتعدون, ومع ابتعادهم أخذ الضوء يخفت تدريجيا حتى ساد الظلام والهدوء مع آخر مصباح اختفى بعيدا ليعود الضوء الخافت القادم من الخارج هو مصدر الإضاءة الوحيد لهما.

لم يعد باقي سواهما, فاقترب منها وهو يسألها "هل أنت بخير؟"

ولم تجب, فقط رفعت رأسها واقتربت هي الأخرى منه لتستقر بين ذراعيه ودفنت رأسها في صدره وأخذت تبيكي, أخذت تفرغ كل ما مرت به في اليومين السابقين.

وتركها حتى هدأت تماما, قبل أن تعتدل في جلستها وتفتح حقيبتها وتخرج منها مصباح وتشعله, ليضيء المكان كله, قربت المصباح من وجهه وهي تضحك بين دموعها التي لم تجف على وجهها بعد وتقول بكل طفولة:

"على الأقل هناك خبر جيد, أنا معك".

ابتسم لما تقول فعادت لتتحسس وجهه بذيلها وهي تقول, "لا أصدق ذلك, أنت هنا بالفعل".

ولم يستطع أن يستمر في ابتسامته, فقد كان يشعر بالمرارة وهو يتلفت حوله ليتفقد المكان, وعرفت على الفور ما يفكر به فسألته:

"هل تخشى الموت؟"

نظر إليها ولم يعرف بما يجيب, فعادت لتقول:

"حتى وإن لم تكن تخشاه, فبال تأكيد الموت في أرض غريبة أمر مؤلم, ولكن, لو أخبرتك أنك لست الوحيد الذي سيموت, وأن ملايين غيرك سيموتون معك في اليوم نفسه ألن يكون هذا كافيا لأن يجعل الموت اليوم حدثا عاديا؟, ألا نستثنى أنفسنا من بين الملايين ونعتبره أمرا مأساويا؟, وأن نكف عن القلق بشأن الموت نفسه ونبدأ في القلق حيال أنفسنا؟, حيال حياتنا الباقية؟"

نظر إليها مندهشا وهي تتحدث عن الأمر بهذه البساطة, فنهضت هي من مكانها وتحركت لتقف على ذيلها وأخذت تدور حول محورها وهي تفرد ذراعيها على طوليهما كراقصة باليه محترفة وتقول:

"أعلم جيدا أن هذه الخوذة التي تمدنا بالهواء في هذا المكان لن تمنحنا وقتا طويلا".

ثم توقفت وهي تشير إلى بقعة منبسطة وسط المرتفعات والمنخفضات التي يقفان بينهما وتسלט عليها الضوء وتكمل:

"لن تمنحنا الوقت مثلا لبناء بيت هنا في هذا المكان وإنجاب بعض الصغار ورعايتهم".

ثم عادت لتدور دورة أخرى وهي تسלט الضوء على بقعة أخرى وتقول:

"كان بإمكاننا أن نبني معملا هنا لنعمل به, وإلى جواره مدرسة ليتعلمون بها هنا مثلا".

ثم اقتربت من صخرة كبيرة تمتد خلفها بحيرة وقالت:

"وكان يمكننا أن نبني هنا كوخا لنا وأن نصنع أرجوحة لنتأرجح عليها عند المغيب".

ثم دارت باتجاهه بأسرع ما فيها دورة واثنين وثلاث وهي تقترب منه, حتى سقطت بين ذراعيه وهي تشعر بدوار وضحكت بأعلى صوتها قبل أن تنظر عميقا داخل عينيه وهي تخفض صوتها وتقول:

"أعلم أنها لن تمنحنا الوقت لنكبر سويا, لأرى الشيب وهو يملأ شعرك, وتراني وقد أنحنى ظهري وملئت التجاعيد وجهي, ورغم ذلك كنت لتبق على حبك لي".

وانتزعت ابتسامة أخرى رغما عنه, وهنا مال عليها وهو يسألها:

"هل لو رفعت خوذتك أيمكنك حينها أن تحبسين أنفاسك لثوان فقط؟"

فقالته وهي تستسلم تماما بين يديه:

"وماذا إذا أستغرق الأمر أكثر من ثوان؟"

فقال بالابتسامة نفسها "سنموت".

فعادت لتقول "وماذا إذا لم نرفع الخوذة وجلسنا دون أن نفعل شيء؟"

فاتسعت ابتسامته لدعابتها وهو يقول "سنموت أيضا".

وهنا تركت المصباح من يدها ليسقط أرضا وكلاهما يرفع خوذته, ليحصلا علي القبلية المؤجلة التي سعا إليها أكثر من مرة ولكنها لم تتم, قبلية لم يعرفا أنها لم يكن لها أن تحدث أبدا, القبلية التي ظلت مجرد حلم يراودهما وكلما قطعت شفتاهما المسافات والحواجز التي تفصلها كانت تتوقف دوما في اللحظة الأخيرة, كأنهما دائما على الحدود بين بلدين, وثمة حاجز يمنع هذا التلامس, هذا الذوبان, حاجز يمنع أحدهما أن يكون في وطن واحد مع الآخر, وهذا الوطن لم يكن سوى شفتين.

ما أن أقترب لتقبيلها حتى لمحا كلاهما ظلا يتحرك على ضوء المصباح, ظلا تحرك لثانية ثم أخنقي خلف تل, ظلا ضخما في مثل حجمهما أو أكبر قليلا.

ولكنه كان كافي ليبث الرعب في قلوبهما.

صرخت هي, وأمسك هو بها وجذبها لتتراجع خلف ظهره ليحميها ثم ألتقط المصباح مرة أخرى ووجهه ناحية التل المرتفع, قبل أن يستجمع شجاعته ويقول بصوت عال "من هناك؟"

"من هناك؟"

عاد "111" ينادى بصوت أعلى وهو يتحرك بحذر خطوة إلى اليمين ثم يعود خطوة إلى اليسار ويشرب بعنقه على يلمح صاحب الظل المختفي وراء التل، فتح حقيبته محاولاً إيجاد أي شيء بها يمكنه استخدامه، فلم يجد سوى مصباح وخطاف وحبل تم وضعهم لاستخدامهم في عبور المرتفعات، بجانب بضعة زجاجات تحتوى على ماء و حساء يكفيهم مؤنة الطريق، و زجاجة نبيذ، أخذ يبحث عن أي سلاح ولكن يبدو أنهم لم يضعوا سلاح في حقيبته خصباً حتى لا يتمكن من الهرب، وهنا ربت "52" على كتفه من الخلف، وحينما التفت إليها وجدها قد فتحت حقيبتها بدورها وأخرجت منها سيفاً وردياً، كانت قد اختارت تلك الحقيبة خصباً التي تحتوى على هذا السيف دوناً عن كل الحقائب الأخرى فهي مغرمة به منذ كان أبيها يحكى لها عنه، مدت يدها به لتناولها له فأخذه وتقدم خطوتين وهو يدفعها برفق لتبقى ملتصقة بالجدار وعاد لينادى:

"أخرج فأنا لا أريد أن ألحق بك أي أذى".

وأنظر ثوان كان صاحب الظل قد حسم قراره فيها وخرج بهدوء، وتنهى "111" مستريحاً وهو يرى أمامه حيوان منوي آخر، كان أسود البشرة، طويل للغاية وعريضاً، دقيق الملامح، وقد ارتسمت على ملامحه تلك مشاعر الخوف، قال "111":

"لقد أرعبتنا يا رجل".

نظر الآخر إليه قليلاً قبل أن يقول وهو يتلعثم:

"أسف لم أقصد ذلك بالطبع، لقد أردت فقط المرور دون أن أزعجكما بوجودي".

وهنا تقدمت "52" وهى تضحك وتقول:

"ولما لم تسرع وتتسابق معهم لتتال فرصتك في التتويج بالمجد والعبور إلى الخلود كما يحلمون؟"

فنظر إليها والارتباك يملأ عينيه ولم يجب، وهنا تقدم إليه "111" وهو يربت على ظهره ويقول "حسنًا لتجلس إذا كنت لا تتوى المشاركة في هذا السباق".

وجلس القادم الجديد، وأمامه مباشرة جلس كلاهما فأخرج "111" زجاجة النبيذ وفتحها قبل أن يشرب منها ويمد يده بها إليه ليشركه الشراب ويطمئن لهما بعض الشيء، فرفع الزجاجة إلى فمه وأجترع منها الكثير في جرعة واحدة و"111" يضحك ويقول "مرحى يا صديقنا الجديد، هذا ما نريده".

أنزل الزجاجة وهو يضحك بدوره قبل أن يسأله "111":

"هل لنا أن نعرف من أنت؟"

فأجاب: "أنا 509".

فعاذت "52" لتسأله: "ولما لا تريد أن تحاول الوصول إلى البوابة والعبور؟، ألا تجد هذا الأمر عجيباً".

فأجاب سؤالها بسؤال: "ولما لا تريدان أنتما ذلك؟"

فأجابه "111" وهو يتناول الزجاجاة مرة أخرى وينظر إلى "52" ويبتسم ويمسك بيدها "لذلك قصة طويلة".

فهز "509" رأسه وهو يقول "ممممم يبدو أنكما لا تريدان أن تفترقا، حسنا، وأنا أيضا لي قصة ولكنها ليست طويلة، ويمكنني أن ألخص إجابة سؤالك في أن العبور والخلود وكل هذه الأمور لا تهمني بالمرة في شيء".

تعجب "111" وهو يسأله "هل ستنتظر هنا حتى تموت هكذا دون أن تحاول؟، ربما يا رجل كانت لك فرصة فتعبر وتصبح من الخالدين في حياة أخرى".

"ولما قد أريد هذه الحياة الأخرى؟"

"ألا تريد الحياة؟" سألته "52".

"هل تريداني أن أقاتل من أجل حياة أخرى وأنا لم أعرف عن الحياة سوى الذل والخدمة والتمييز والمهانة؟، هل تريداني أن أحارب من أجل هذا، كفاني حياة واحدة كنت أكره فيه استيقاظي كل صباح وأنا أعرف أني لن أسمع سوى "يا أسود، الأسود ذهب، الأسود فعل، الأسود أخطأ، عاقبوا الأسود"، كفاني حياة واحدة".

وصمت كلاهما تأثرا بما قال، قبل أن تقترب "52" منه وتربت على كتفه وهي تقول بحنو:

"ولكن كل هذا ليس موجودا في العالم الآخر، لا يوجد هناك سوى المساواة، لا يوجد ظلم، لا يوجد كره، لا تمييز بين أبيض وأسود وأشقر، إنه العالم الذي يحلم الجميع به، ربما كانت هذه هي المكافأة التي تستحقها بعد الحياة الصعبة التي خضتها، ربما كان هذا يستحق حقا أن تحاول من أجله".

كان قد هدأ كثيرا بعد أن أطمأن لهما ولحديثهما فقال وهو يبتسم "لست مستعدا للمراهنة على عالم لا أعرف عنه أي شيء بحياة أخرى كاملة، لم يعد أحد من هناك ليؤكد ما تقولين وما يقوله الجميع، ولذلك تكفيني الحياة التي عشتها".

ضحك "111" وهو يقول له "أنت مجنون".

ولم يضحك "509"، بل قال بكل جدية "ربما يوما ما سيذكرني أحدهم بأنني كنت العاقل الوحيد بين كل هؤلاء".

قالها وهو يشير إلى الظلام الممتد الذي قطعتة الملايين منذ قليل ولا أحد يدرى إلى أين ذهبوا، قبل أن يعود لضحكته وهو يكمل "أعطني هذه الزجاجاة يا رجل دعنا نموت سعداء على الأقل" قبل أن يرفع الزجاجاة مرة أخرى وهو يصرخ "تحيا الحرية".

وبينما يشرب إذا فجأة بحركة أخرى فاجأتهم جميعا, فمن بعيد عاد الضوء ليتسلل من الخارج قبل أن يغمر المكان, وإذا بالماء يندفع كأمواج عاتية نحو ثلاثتهم, وعلى الفور أسرع "509" ليتسلق التل الذي كان يسند ظهره عليه بينما أخرج "111" على الفور الخطاف ذو الحبل الطويل من حقيبته ليقيضه نحو الجدار المقابل ويتأكد أنه قد غرز في الجدار جيدا ويدفعها لتتسلق الحبل وهو من خلفها, واندفعت أمواج الماء لتفصل بين "509" في جهة وبين "111" و "52" في الجهة الأخرى, والماء يغمر المكان الذي كانوا جالسين فيه منذ ثوان ويغرقه بالكامل جارفا معه المصباح وزجاجة النبيذ وحقيبة "509" التي تركها خلفه.

أخذ "111" يحث "52" على الاستمرار في الصعود حينما بدأ يشعر بالماء يضرب ذيله ويستمر بالارتفاع, حاول أن يدفعها إلى أعلى ولكن حركتها كانت أبطأ من الماء المندفِع.

نظرت إلى أسفل لترى الماء يرتفع ليغطي جذعه ويستمر في الارتفاع إلى عنقه فتشبثت بالحبل أكثر وهي تمد يدها لترفع "111" بيد بينما تحاول أن تستمر في الصعود معتمدة على ذيلها ويدها الأخرى.

وبالفعل نجحت في أن ترفعه قليلا والجدران تعود لتتقبض فينحصر معها الماء منسحبا مرة أخرى مثلما أندفع فجأة والفتحة التي يأتي منها الضوء تنغلق ساحبة معها الضوء والماء, ليظلم المكان تدريجيا إلا من الشعاع ذاته الخافت الذي يسمح لهم أن يروا ظلالهم من خلاله.

توقف كلا منهم لاهثا يلتقط أنفاسه بينما كان "509" في الجهة المقابلة قد أعتلى التل المرتفع مما جعله طيلة ما حدث في منأى عن خطر الماء, فنادهما وهو يضحك "تعالا إلى هنا قبل أن يحدث شيء آخر".

قال "111" وهو يترك الحبل ليفقر بينما نزعت هـي من الجدار قافزة خلفه في بقايا الماء "ما هذا الذي حدث؟, أي شيء كان هذا؟"

فقلت "52" وهي تتحرك نحو التل "إنه ماء يستخدم للاغتسال, أنهم ينظفون المكان بعد القذف, لهذا فجميعهم ما أن نزلوا حتى جروا مسرعين, كان هروبا قبل حدوث هذا الاغتسال وليس تسابقا للفوز بالعبور كما ظننت, كيف نسيت هذا الأمر؟, لطالما شرحة لي أبي".

كانت توبخ نفسها حينما تسلقت التل بالكامل بينما كان هو لا يزال بالأسفل حينما انفتحت الفتحة مرة أخرى وأندفع الماء مجددا أقوى من المرة السابقة وعاد الضوء ليغمر المكان, وشهقت "52" وهي تلقى له بالحبل وتخبره بأن يصعد بسرعة, ولكن, وما أن تحرك خطوة واحدة حتى كان الضوء يخفت وأصبع عملاق يدخل من الفتحة ليمسح كل شيء بينما تعود الجدران لانقباضها ويرتج المكان كلها.

ومع الارتجاج أفلتت "52" الحبل رغما عنها ليسقط "111" أمام عينها في الماء, والأصبع يضرب التل الذي تقف عليه مع "509", ولكن الأخير تعلق جيدا وأمسك بـ "52" فلم يسقطا.

كان "111" يقاوم تيار الماء ويحاول أن يتقاضى في الوقت نفسه أن يسحقه هذا الأصبع العملاق الذي أخذ يتحرك في كل اتجاه ويضيق عليه المكان بينما هم يتابعون بكل عجز ما يحدث, كانت

وفجأة أنشق الظلام عن خطاف يغرز عاليًا في الجدار المقابل، ومن العدم ظهر "31" طائرا وهو متعلق بالحبل المتدلي، لا أحد يدرى من أين ظهر؟، فقط شهق "509" وهو لا يصدق ما يفعله هذا الرجل في حين اتسعت عيننا "52".

ظهر ليشق الظلام وهو يطبق على مصباحه في فمه, وحقيبتة معلقة على ظهره, وذيله ملتف حول الحبل, بينما فرد جسده ومد كلتا يديه ليمسك بـ "111" قبل أن يجرفه الماء إلى الخارج, وما أن أمسك به حتى كان يقوم بمراوغة أخرى جعلت "509" يصفق انبهارا.

كان الأصبع يمر ليقوم بمسحة أخيرة حينما قذف "31" الحبل بذيله عكس اتجاه حركة الأصبع, ثم أفلته ليسقط هو و"111" في الفراغ دون أن يترك يده, وما أن مر من فوقهما الأصبع حتى عاد ليلتقط طرف الحبل مرة أخرى من أسفل الأصبع بذيله بكل قوة.

وأخيرا انسحب الأصبع, انسحب تاركا "31" وهو ممسك بـ "111" وكلاهما يتأرجح في الفراغ, تركه "31" ليسقط على الأرض قبل أن يتسلق الحبل لينتزع الخطاف ويحرره من الجدار وهو يقفز بدوره واقفا على قدميه.

"لا وقت أمامنا سيعود هذا الشيء مرة أخرى بالتأكيد وسيغمر الماء المكان مجددا علينا أن نتقدم".

قالها وهو يتحرك إلى الأمام ممسكا بمصباحه لينير لهم الطريق المظلم أمامهم, وقفزت "52" لتحتضن "111" وهي لا تصدق أنه نجا, في حين قفز "509" وهو يشير إلى "31" ويسألها مذهولا "من هذا الرجل؟, أنه بطل".

وهنا سمعوا جميعا صوت "31" وهو يصدر الأمر إليهم "تحركوا".

وتركت "52" ذراعي "111" لتلحق بأخيها وهي لا زالت لا تصدق بعد, ومن خلفهما "509" يساعد "111" ليلحقا بهما وقد أعياى الأخير ما حدث.

"من أين أتيت, ولماذا أنقذتنا؟"

ودون أن يتوقف أو يلتفت إليها قال "هل تظنين أنى أريد لك الموت؟"

وقفت هي مكانها وعقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تقول "ربما لا تريده لي أنا, ولكن من المؤكد إنك كنت تريده له, أنت من تسببت لنا في كل ما نحن فيه".

وتوقف ليلتفت إليها للحظات و شفتاه تنفرج كأنه يهيم بأن يقول شيئا ما, قبل أن يتراجع ويقول "لن تفهمي, لن تفهمي, هيا بنا".

قالها وعاد ليتقدم, حينما وصل "509" وهو ممسك بـ "111" فسألت الأخير "هل أنت بخير؟", فأبتسم وهو يجيبها "نعم اطمئني" ثم أفلت ذراع "509" التي كان يتكأ عليها ويشكره ليطمئنها إنه فعلا بخير, ومال عليها وهو يقول "لا فائدة من اللوم, ولا تقسو عليه, انتظري فقط حتى يزول الخطر وبعدها بالتأكيد سنجلس ونتحدث".

وحدقت به غاضبة وهي تتعجب, كيف له أن ينسى ما فعله بهما؟, فإن كان قد أنقذه من موت محقق فهو من دفعه إليه منذ البداية, ولكن أمر آخر من أخيها وهو يقول "قلت تحركوا" جعلهم ينتفضون ويسرعوا ليتبعوه.

كان الطريق وعرا مائل إلى الصعود, مما جعلهم جميعا بعد وقت يلهثون وهم يستمرون في الصعود, ولكن لم يكن بإمكانهم أن يتوقفوا خاصة وتلك الفتحة تنفرج من بعيد مجددا والماء يعود ليغمر المكان تحتهم والأصبع نفسه يدخل لترتج بهم الأرض مرة أخرى, مما دفعهم لأن يسرعوا, وما أن وصلوا إلى الأعلى حتى وقفوا مذهولين بالمشهد, فأمامهم مباشرة, وعلى أضواء المصابيح التي تناثرت أمامهم, كانت هناك صحراء واسعة ملساء للغاية تحيطها المرتفعات من كل جانب, وكانت جثث الحيوانات المنوية, والتي تحطمت خوذاتها أو سقطت أثناء التدافع ومع الارتجاجات التي حدثت, قد ملئت هذه الصحراء, كان الطريق مفروشا بالجثث مما جعل "52" تبكي وهي تدفن رأسها في صدر "111" وتقول "نحن صغارا جدا, نحن لا شيء", فربت "31" على كتفها وهو يقول: "كنت أود أن أجعلكم تستريحوا هنا ولكن يبدو أنكم لن تحتملوا ذلك, سنستريح بعد أن نعبر أحد النفقين الذين ينتهي بهما الطريق فأسرعوا جميعا".

وأكمل المسير, وساروا جميعا خلفه محاولين أن يتجنبوا النظر إلى الجثث التي حطمت يوما بالوصول إلى الخلود وهامي تموت هنا دون أن يعرف أحد عن مصيرها أي شيء, عاشوا مجهولون وماتوا مجهولون.

أخذ "31" يسير وهم معه حتى قطعوا هذه الصحراء ووصلوا في النهاية إلى سلسلة المرتفعات, وقفوا جميعا يتقدمهم "31" أمام مفترق الطريقين, وهنا ألتفت إليهم وهو يقول "والآن الاختيار لكم, أي طريق نسلك؟", وتطلع إليهم منتظرا إجابة ولكن لم يجبه أحد, فعاد لينظر إلى "111" الذي قال, "لماذا تنظر إلي؟, أنت تعلم أن الأمر كله لا يعني في شيء فلما علي اتخاذ قرار كهذا؟", وهنا قالت "52" متهمكة "ألسنت القائد!, لما لا تختار أنت", فتنهد "31" وهو يقترب منها ويقف أمامها تماما ويضع يده على كتفها ويقول "يكفيني أنى كنت السبب في أن تكوني هنا الآن, لو كنت وحدي لاخترت, ولكنى لن أتحمّل مسؤولية أن أقودك إلى الطريق الخاطئ, فأنت تعلمين أنه اختيار واحد, إذا قطعناه ولم نجد شيئا فلن يكون أمامنا متسع من الوقت لنعود إلى الطريق الثاني, ولذا اختاري أنت أو هو".

وتأثرت "52" بما قال, شعرت بالأسف والندم يخرجان مع كل كلمة نطق بها, ولكنها لم تكن قادرة على مسامحته فأبعدت يده برفق عن كتفها وهي تستدير مباشرة إلى "509" وتقول له: "أختر أنت", نظر إليها وهو يتعجب مما تقول, فعادت لتقول بكل حزم لتخرجه من تردده "أي طريق نسلك هيا؟" وبكل ارتباك قال وهو يشير إلى الطريق الأيمن بيد مرتعشة "هذا" ودون أن تتحدث أخذت بيد "111" ودخلت إلى الطريق, ليسير "31" بالخلف هذه المرة, وبصحبة "509"

"أنت رجل عسكري ألسـت كذلك؟"

سأل "509" وهو يسير إلى جوار "31" فلم يجبه الأخير بشيء وهو يتابع السير، بل لم يلتفت إليه، ولكن لم يتضايق الأول من ذلك فقد كان منبهرا بكل ما رآه يفعله فعاد ليكمل:

"بالتأكيد أنت رجل عسكري، وإلا كيف كان لك أنت تفعل كل ذلك؟، أنت بطل يا سيدي حتى وإن لم تتل مجد العبور والخلود".

لم يجب "31" أيضا بأي شيء، كان منشغلا كلياً بالانتباه للطريق ودراسة طبيعته ومراقبة الكهوف التي تمتلئ بها الجدران وقمم الجبال، وهو يلتفت إلى أعلى برأسه يمينا ويسارا، كان حذرا جدا بطبيعته العسكرية التي علمته المراقبة والاحتراس في أي طريق لا يدرى عنه شيئا تجنباً لأي خطر غير متوقع، أكمل "509" كأنه يتحدث إلى نفسه "ولكن كيف لا تتل هذا المجد، ومن سواك يستحقه؟" ثم أسرع وهو يجذبه من يده ويقول، "أسرع يا رجل أسرع، لا أحد يستحقها سواك".

وابتسم "31" رغما عنه وهو يرى هذا الضخم يجذبه كطفل صغير يجذب أمه من يدها ليربها لعبة يريد أن تشتريها له.

وبالأمام كان "111" يسير إلى جوار "52" وقد وضع يده على كتفها طيلة المسير، قال: "إنه يحاول أن يصلح ما فعله معنا".

أجابت كطفل عنيد وهي متشبثة برأيها "وكيف يصلحه ونحن سنموت على أي حال، إلا إذا أستطاع بذكائه الخارق الذي أوصلنا إلى هنا أن يعيدنا، أو أن يجعلنا نحن الثلاثة نعبر سويا لنلتق هناك في العالم الآخر".

كان يعرف أنها لا تزال غاضبة منه ولذا حاول أن يغير الموضوع مؤقتا علّها تهدأ بعض الشيء، فمد يده في جيبه وأخرج الوردة التي كان قد جلبها من حديقة المبنى الأمني حيث كانوا يحتجزونه أثناء خروجه وأعطائها لها، وابتسمت عيناها بكل حب وسعادة وهي تقول:

"لا أصدق، حتى هنا!"

"وفي أي مكان".

أمسكت بكف يده الموضوع على كتفها وأمالت رأسها لتضع وجنتها عليه وهي تطبق على الوردة بيدها الأخرى واستمرا في السير.

كان الطريق ينعطف يمينا حينما لمحوا أضواء تنعكس وسمعوا أصوات عالية تأتي من خلف المنعطف، فأوقفها "111" بإشارة من يده وهو يضع إصبعه على فمه في إشارة لها بالألا تصدر أي صوت، في الوقت الذي اقترب فيه "31" و "509" منهما فأشار لهما بنفس الإشارة قبل أن يشير إلى الأضواء المنعكسة ليفهم "31" أن هناك أحد ما هنا، فأشار لهم "31" بدوره أن يبقوا مكانهم وتقدم ليستطلع الخبر.

في البداية تقدم ببطء وهو ملاصق للجدار دون أن يصدر أي صوت, ومع انعطافه توقف ومد عنقه ليرى خمسة من الحيوانات المنوية, ثلاثة من الـ (Y) و اثنتان من الـ (X) يقطعون الطريق وقد جمعوا مصابيحهم ليصنعوا نورا كبيرا وأخذوا يشربون ويرقصون ملتقين حول الضوء كأنهم في رقصة إفريقية.

فعاد ليلتفت إلى مجموعته وهو يقول بصوت منخفض "لا يتحرك أحد من مكانه" قبل أن يمسك حقيبته بيده ويطمئن على سيفه بها ثم تقدم نحوهم.

توقفوا تماما حينما رأوه فبادر وسألهم: "هل لي أن أسألكم ماذا تفعلون؟"

ضحكت أحدهم وهي تجيب "نرقص" ثم اقتربت منه وهي تضع يدها على صدره القوي وتكمل رقصتها صعودا ونزولا أمامه وتقول بكل دلال "عجبا! كيف يصل القوي متأخرا؟, هل تود الانضمام إلينا؟"

فأنزل يدها بكل صرامة وهو يتوجه بالسؤال لأحد الذكور "ترقصون هنا؟, أمجانين أنتم؟" فجلس الرجل مكانه وقال وهو يبتسم بكل مرارة "بل ميتون, أو إذا أردت أن أكون أكثر دقة, على مشارف الموت".

لم يفهم "31" ما يقصده الرجل فقالت المرأة الأخرى بشيء من الود "لا تتعب حالك, فهذا الطريق لا يؤدي إلى شيء, قطعناه كاملا و وجدنا نهايته عدم, لاشيء, فكرنا في العودة ونحن نعلم أنه ليس لدينا ما يكفينا لنعود ونحاول في الطريق الثاني, ولكننا تحركنا قدر ما أمكننا ولم يعد بمقدورنا أن نكمل أكثر من ذلك, فإذا أردت الانضمام إلينا فأهلا بك, فقد قررنا أنه إذا كان الموت قادما على أي حال, فلنمت ونحن نرقص, أما إذا أردت أن تحاول وتعود, فيكفينا أننا وفرنا عليك مشقة أن تقطع أكثر من نصف الطريق وتعود بلا شيء, والآن هل لديك أسئلة أخرى أم يمكننا أن نعود للرقص؟"

ودون أن يجيب قام الرجل الأول مرة أخرى ليصدر الأصوات نفسها وهو يدور حول الأضواء, وتبعوه وكل منهم يمسك بزجاجته ويشرب منها دون أن تنزل المرأة الأولى عينيها من عليه أو تفارقه نظراتها, وكأنها كانت تتمنى أن تكون لها مغامرة أخيرة معه قبل الموت, ومن لا يتمنى مغامرة كهذه؟, ولكن لم يكن ليسمح وقته بذلك.

عاد "31" إلى المجموعة وكان يبدو عليهم أنهم استمعوا إلى الحديث كله, فأبتسم "31" وهو ينظر إلى "509" ويقول بكل ود "الطريق الخاطئ".

شعر "509" بشيء من الحرج خاصة مع الطريقة المهذبة التي خاطبه بها "31" والتي أراد بها ألا يحرجه فجعله يشعر بمزيد من الحرج, أسرع يشير إلى "52" وهو يقول لها "أنت من جعلتني أختار, كيف كان لي أن أعرف؟"

فتحرك "111" ليكون بذلك أول المتحركين في طريق العودة و ربت على كتف "509" وهو يقول مبتسما أيضا ليهون عليه "لا عليك, فلا أحد منا ينتظر شيئا من كل هذا الأمر نحن فقط لا نريد أن نموت مكاننا" قالها وهو ينظر إلى "31" حينما تحركت "52" ومازحته قائلة "ولكن هذا

يعني أن إحساسك عال يا صديقي, لقد قادك اختيارك حيثما أردت منذ البداية تماما, إلى
اللاشيء".

قالتها وهي تضحك لتتبع "111" وتتعلق بذراعه مرة أخرى ويعود "509" إلى جوار "31"
ليتبعوهما, كان من الواضح أن هذا الأخير قد تخلي عن صرامته في لحظة ضعف, لحظة كانت
فيها جملة المرأة التي رآها ما زالت تنردد بأذنه " إذا كان الموت قادما على أي حال, فلنمت
ونحن نرقص", لاشيء يهذب من جديتنا في التعامل مع الأمور مثل ما تفعله رؤية الموت قريبا,
فوحده الموت يجعل أي شيء آخر مهما كان عظيما يبدو تافها, ولكن ما أن عاد وتذكر البوابة
ومجد العبور, حتى عاد ليحمسهم ويدفعهم لعدم الاسترخاء في السير مرة أخرى.

عادوا الطريق بأكمله دون أن يتبادلوا أي حديث فقد كان التعب قد بدأ يحل بهم جميعا, ولكن كان
عليهم على الأقل أن يصلوا إلى مفترق الطرق دون أية راحة, ومنه ليتجهوا إلى الطريق الثاني.

"لقد تعبت, لا أستطيع أن أتحرك خطوة واحدة أكثر من ذلك"

قالتها "52" وهي تسقط مكانها على أقرب صخرة, كان الإعياء يظهر عليهم جميعا, وسقط إلى
جوارها "111", ونظر "509" إلى "31" الذي قال وهو يتجاوزهم "لا يسعنا أن نتوقف الآن,
يجب أن نكمل".

فصرخت هي فيه "لماذا؟"، لماذا يجب أن نكمل طريقا لم نختره منذ البداية، إذا أردت أن تلحق أنت بمجدك الذي ينتظرك فلا أحد يمنعك من ذلك، يمكنك أن تذهب".

التفت إليها وهو يقول بهدوء "أنا لا أفعل ذلك من أجل نفسي".

"إذا كنت تفعله من أجلنا فيبدو أنك لا تفهم الأمر بعد، فأحدنا لا يمكنه العبور، والآخر لن يفعل ذلك ولا يهتم بهذا الأمر كليا، وأنا لا أريد سوى أن أقضى ما تبقى لي مع من اخترت منذ البداية، لا أريد سوى أن أكون معه، فكف عن ذلك، يمكنك أن تذهب إذا أردت أو أن تجلس معنا".

قالتا محتدة فنظر هو إلى "111" علّه يقول شيئا يقنعها به أن يكملوا المسير ولكنه لم ينطق، فأقترب منها ومال نحوها وقال "دعيني على الأقل أمنحك شيئا تغفرين لي به، إذا كانت هناك فرصة لنجاة أحدنا فأعلمي أنني لا أتمنى سوى أن يكون هذا الشخص هو أنت، وأعتقد إنه هو الآخر لا يريد سوى ذلك".

عاد لينظر إلى "111" وهو إلى جوارها كأنه يرجوه أن يتدخل لإقناعها، فأمسك الأخير بيدها وهو يقول "أنه على حق"، وهنا عادت لتتظر إليه مستنكرة وهي على وشك أن تنفجر في وجهه ولكنه لم يمنحها أية فرصة، قام من مكانه وهو يجذبها ويقول، "لا داعي للكلام، دعينا نكمل الطريق وبعدها ليكن ما يكون".

قامت معه متكاسلة وهي تنذمر، "لا أستطيع، لقد تعبت حقا"، ابتسم لها أخيها وهو يقول "لم يعد باقي الكثير، لقد قطعنا نصف الطريق تقريبا".

ولكنها لم تلتفت إليه، تعلق فقط بيد "111" وسارت معه وهي تسند عليه.

فتحت حقيبتها وأخرجت منها أحد الزجاجات ورفعتها لتتناول ما بها، قبل أن تعطيها لـ "111" ليشرّب بدوره، كان "509" قد فقد حقيقته منذ البداية، ففتح "111" حقيقته هو الآخر وأخرج زجاجة أخرى ناولها له وهو يبتسم ويخبرهما إنه يمكنهما تقاسمها، وأكملوا الطريق.

ومع المنعطف التالي لاحت لهم من بعيد بداية الطريق إلى النفق الأيسر، أشار لهم "31" من فوق المرتفع الذي كانوا قد وصلوا إليه وهو يقول "تل آخر علينا اجتيازه وبعدها لن يتبقى لنا الكثير"، كان عليهم الهبوط ثم الالتفاف حول التل الأخير قبل أن يتجهوا مباشرة إلى النفق الآخر، ولكن خلف هذا التل كانت المفاجأة الأكبر بانتظارهم، فأمامهم مباشرة كانت هناك بحيرة صفراء ممتدة كأنها لا نهاية لها، وكانت تطفو عليها بعض جثث لحيوانات منوية حاولوا عبورها ولكن يبدو وكأنهم كانوا منهكين حد أنهم لم يقووا على ذلك، غرقوا بها، توقفت المجموعة أمامها وهم ينظرون إلى "31" ليخبرهم ماذا عليهم أن فعلوا، ولكنه كان حائرا مثلهم، تقدم "509" ليضع ذيله بها وهو يقول "يبدو أننا علينا أن نكمل طريقنا سباحة" ولكنه ما أن حاول أن يرفع ذيله منها حتى قابلته صعوبة، لقد كانت لزجة للغاية حتى أنه حينما رفع ذيله في النهاية كان قد علق به الكثير من مائها فقال بكل استياء وهو ينظف ذيله "أي ماء هذا؟"

وعادت "52" لتجلس مكانها وهي تلتقط نفسا عميقا وتقول دون أن تنظر إليهم:

"هذا ليس بماء".

فنظروا جميعا إليها فأكملت "هذا صديد".

لم يفهموا ما قالت فأخذت تشرح "ليس بشيء قاتل، ولكنه سيؤخرنا كثيرا ونحن قد أنهكنا الطريق، سيكون عبورها بعد كل ما قطعناه عملا انتحاريا، لن نقوى عليه، وإذا استطعتم انتم فأنا لن أستطيع، أعتقد أنه نهاية الطريق".

ثم نظرت إلى أخيها وهي تقول "بالنسبة لي على الأقل"، ولكن "31" عاد ليقول "لا يمكننا أن نتوقف الآن"، قالها وهو يتجول بنظره بكل عصبية حوله محاولا إيجاد حل آخر فعادت لتصرخ فيه "أراك تريد أن تقتلنا الآن".

وقبل أن يجيبها أضيئت الجدران بامتدادها على الجانبين بالكثير من المصابيح الصغيرة، ليروا الكثير والكثير من الكهوف داخل هذه الجدران، وكائنات هلامية الشكل تطل برأسها من هذه الكهوف، والمخاط يسيل من فمها وهي تمسك بالمصابيح.

كانت الفوضى تعم المكان والقاذورات في كل مكان، تجمع الأربعة ليلتصقوا ببعضهم البعض وهم لا يفهمون ما يجري، عندما تحرك كائنين من هذه الكائنات وهما يمسكان بمكتب ومقعد وضعوها أمام البحيرة مباشرة، وبحركة ثقيلة خرجت سيدة عجوز هلامية الشكل كذلك، سميكة للغاية وقد عقدت شعرها الأبيض خلف رأسها، عدلت من نظارتها وهي تجلس على المقعد وتخرج بضعة أوراق من المكتب وقلم، ثم نظرت إليهم من خلف نظارتها وقالت "مرحبا بكم، هذه المنطقة تابعة لفطريات الصديد، يبدو أنكم قد وصلت متأخرين عن زملائكم الذين مروا من هنا منذ فترة طويلة، ولكن لا بأس، إذا أردتم المرور فعليكم دفع ضريبة بسيطة كمن سبقوكم وبعدها سنقلكم بأنفسنا"، قالتها وهي تشير إلى البحيرة الكبيرة التي ترسم حدود منطقتهم، ومع إشارتها ظهر كائن هلامي آخر معصب العين اليمنى على قارب كبير مفرود الشراع في البحيرة قد جاء لينقلهم إلى الضفة الأخرى منها.

نظر أربعتهم إلى بعضهم البعض في حيرة قبل أن يسأل "31" متعجبا:

"أية ضريبة؟"

فقالت السيدة وهي تكتب في أحد أوراقها "أي شيء تمتلكونه من طعام، حساء، عصائر، ماء، أي شيء".

بقوا على صمتهم وهم ينظرون إلى "31" الذي ألفت إليهم وسألهم "ماذا تبقى معكم؟"

كانوا متعجبين جدا مما يحدث ولكنهم أخذوا يفتشون الحقائب الثلاث ووجدوا أنهم لم يبق معهم سوى ثلاث زجاجات من الحساء وزجاجتين من الماء ومثلهم من النبيذ، فتحوا الحقائب أمامها فنظرت السيدة إلى ما في الحقائب وهي تمط شفتيها وتقول "هذا بالكاد يكفي لعبور واحد فقط منكم"، فقالت "52": "ولكن هذا كل ما نملك"، نظرت إليها السيدة لثانية قبل أن تهز رأسها وتقول "لا يكفي".

صرخ فيها "31" قائلا "بما تخرفين يا امرأة؟"

وتقدم بكل عصبية نحوها حينما ظهر من أحد الكهوف جنودا منهم تحمل عصيا في أيديها, كانوا جميعا قصار القامة بشكل ملحوظ ولكن عددهم كان كبيرا جدا, اندفع "31" وهو يقول "سنعبر, لا وقت لدينا لنضيقه مع هؤلاء", قالها وهو يسحب سيفه ولكن ما أن سحبه حتى ظهر أحد هذه الكائنات متأرجحا على حبل من جانب إلى آخر وهو يخطف السيف من يده, قبل أن يكيل آخرون له عدة ضربات بالعصي على جذعه كي يسقطوه أرضا, ولكنه لم يسقط, ركل أحدهم ولكم آخر ودفع ثالث في الوقت الذي ظهر المزيد منهم ليحيطوا بـ "52" و "111" و "509", أمسك الثاني بها وجذبها خلفه لتكون بينه وبين "509" محاولا حمايتها, ولكنهم كانوا يقذفونهم بقاذوراتهم والزجاجات الفارغة من أعلى, ولم يجد "509" مفرا من القتال, صرخ فيهم حاملا الكثير منهم وهو يلقي بهم بعيدا مخترقا الحصار الذي ضربوه حول "31" وهو يسحبه من يده ويقول "هيا لا قبل لنا بهم, هيا", ولكنه في هجمته تلك جعل ظهر "52" مكشوبا, ليقفز أحد هذه الكائنات من أعلى وينزل على رأسها بضربة من عصاه, ضربة أفقدتها توازنها لثوان فسقطت أرضا, والتفت "111" إليه وحمله وهو يركل آخر بذيله قبل أن يلقي بهذا في البحيرة, ثم أسرع إليها وهو يسألها "هل أنت بخير؟", وأجابته وهي تتحسس خوذتها بأنها بخير, لم تشعر بأنها أصابها أي سوء, ولكن شرخا صغيرا كان قد حدث بالخوذة لم تشعر بوجوده, ولن تشعر به الآن.

مد يده وساعدها على النهوض و "509" يسحبهم إلى الخلف ليتراجعوا, وتراجعوا جميعا أمام أنظار هذه الكائنات التي تكاسلت عن اللحاق بهم واكتفت بما حدث, والمرأة تنظر إليهم بكل استقراز والجنود ملتفين حولها لحمايتها قبل أن يتحرك الاثنان نفسيهما اللذان جلبا المكتب ليعيداه من حيث أتيا به.

وما أن ابتعدوا بالقدر المناسب حتى سقطت "52" مكانها وقد تمكن منها الإرهاق والتعب, وسقطوا جميعا بدورهم يلهثون, جلسوا ليستريحوا, فقد كانوا في أشد الحاجة لهذه الراحة.

تكررت على نفسها بين ذراعي "111" وأغمضت عينيها, كانت تشعر أن ما مرت به في الأيام الماضية أكبر بكثير من قدرتها على الاحتمال, ولا تدري كيف لم تسقط إلى الآن؟, كيف يحملها جسدها؟, ولكنها كانت وكأنها تستمد قوتها من وجودها معه, قبل أن تتذكر أنهم جميعا سيموتون بعد وقت ليس بالطويل, فكيف كان لعقلها الذي يدرك جيدا هذه الحقيقة, حتى وإن تناستها هي في خضم كل ما يمرون به, أن يلتفت لأمر كالتألم نتيجة الإحساس بالتعب؟, وحينما وصلت إلى هذه الفكرة انكمشت بين ذراعيه أكثر وأمسكت بكف يد لتحضنه, فهي تريد أن تشعر بدفء جسده, وبأنها حقا معه قدر الإمكان.

وأمامهم مباشرة جلس "509" يلتقط أنفاسه هو الآخر, بينما كان "31" قد تركهم ليتفقد المكان, وما أن عاد حتى وقف "509" سائلا إياه "هل وجدت شيئا؟"

فقال "31" وهو يشير إلى أعلى "نعم, لا حل أمامنا سوى أن نتسلق هذا المرتفع, سنعبّر من أعلى ونعود إلى الهبوط مع نهايته, أعتقد إنه سيلقى بنا داخل النفق مباشرة, أي أننا سندور حول البحيرة, وهذا كافي ليجنبنا المرور من طريق هذه الكائنات مرة أخرى".

التفتوا جميعا لينظروا حيث يشير, ورأوا المرتفع الذي يشير إليه, كان شديد الانحدار ومرتفع للغاية, حد إنها عادت لتقول "لا مستحيل, هذا أيضا مرهق, لن يضيرنا التوقف هنا, لقد حاولنا وكفانا ما وصلنا إليه".

ولكنها فوجئت بـ "111" وهو يربت على رأسها ويعتدل في جلسته لتعتدل هي معه, ودون أن يتقوه بكلمة واحدة نهض وتقدم وبدأ التسلق أمام أعينهم جميعا, أخذ يتسلق وهي لا تصدق بعد ما فعله, وأستغرق وقتا حتى وصل إلى أعلى نقطة يصل إليها حبله, ثم نادي عليها "يمكننا ذلك, هيا".

قالت يائسة "لااااااا", في الوقت الذي ألقى إليهم بحبله ليتعلقوا به, نظرت إلى أخيها غاضبة فأستقبل تذررها بابتسامة وهو يقول "من بعدك".

ولم تجد أمامها مفر، أمسكت بالحبل ولفت حوله ذيلها وهى تتحرك إلى أعلى وهم من خلفها. وصلوا إليه قبل أن يعاود الأمر نفسه، أخذ يسبقهم ثم يلقي إليهم بالحبل ليتبعوه، وكأنه مدرب على هذه الأمر أو وكأن هذا ما كان يفعله طيلة حياته، ورغم تعبها، كانت سعيدة بأن تشاركه كل هذا، حتى وإن كان هذا آخر ما سيفعلانه.

إذا سألتهم قبل يوم واحد كيف تتخيل أن يكون يومها الأخير معه؟، لكان لها أن تضع عشرات السيناريوهات، ما بين أمسية على شاطئ مع الموسيقى والرقص والشراب، وبين البقاء في الفراش بين ذراعيه، كان يمكنها أن تذهب بخيالها كيفما تشاء، ولكنها لم يكن لها أن تتخيل أبداً أن تقضى هذا الوقت الأخير معه في مواجهة كل هذه المخاطر، في تسلق مرتفعات والهروب من فطريات الصديد ومقاومة أمواج من الماء وأصبع ضخمة يتحرك بجنون، لقد منحها القدر نهاية أفضل بكثير مما كانت تحلم بها، منحها الإحساس بالخطر معه، ووحده الإحساس بالخطر مع من نحب يجعلنا نكتشف أين يكمن الأمان، وحينما تأكدت أنه يكمن في أن تكون معه، وإلى جواره، عرفت أن اختيارها منذ البداية كان صحيحاً، ولا توجد متعة قد تقدمها الحياة لنا كمتعة التأكد من صحة اختيارنا.

وصلوا إلى قمة المرتفع وبدؤوا في التحرك بمحاذاة الجدار واحداً تلو الآخر، فلم يكن الطريق يتسع لأن يسير اثنان منهما متجاورين، كان "111" في المقدمة وهى خلفه تمسك بخصره بكتلتا يديها، وخلفها أخوها ثم "509".

كان الارتفاع شاهقاً حد أنهم كانوا يتحاشون النظر إلى أسفل، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة تفاجئوا بأن الطريق مقطوعاً، فقد كان الطريق ينتهي بهوة، وعلى امتداد البصر كان يعود ليتصل مرة أخرى ولا زالت البحيرة أسفلهم، وكانت المسافة الفاصلة لا تسمح بالقفز. "وحتى لو كانت تسمح، خطأ واحد قد يعنى نهاية حياة أحدنا".

قالها "509" من موقعه، فقال "31" "دعوني أمر".

تجاوزهم بصعوبة وهو يحاذر من السقوط ودرجة الحرارة ترتفع أكثر والعرق يتصبب منهم جميعاً، وحينما وصل إلى المقدمة أخرج حبله وأخبرهم بأن يعودوا خطوات إلى الوراء قبل أن يقذف بالحبل نحو الجهة المقابلة، ولكن الحبل كان أقصر من أن يصل، فاستدار إلى "111" وهو يقول "أعطني حبلك"، ناوله "111" حبله فعقد "31" الحبلين سوياً وتأكد من إحكام العقدة قبل أن يعود ليقتذف بالحبل، ولكنه لم ينجح في أن يغرز الخطاف في الجهة المقابلة، أعاد المحاولة ومع المرة الثالثة نجح، شد الحبل عدة مرات ليتأكد من أنه أنغرز في الجهة الأخرى جيداً ولن ينفلت، ثم عاد وربطه من جهته في بروز وبرز خطافه بهذا البروز جيداً وعاد ليختبره.

ودون أن يتحدث تقدم ولف ذيله على الحبل وامسك به بكتلتا يديه ليتدلى جسده كله في الهواء، وهو يدفع بجسده ليتحرك إلى الأمام، وأمام أعينهم استطاع أن يفعلها، وصل إلى الجهة المقابلة وكان الطريق متسع على هذه الجهة، نادى عليهم "هيا، يمكنكم فعلها".

نظرت "52" إلى "111" وهي تقول "إنه مجنون، لن يمكنني أن أفعل ذلك، هو عسكري ومدرب على مثل هذه الأمور أما نحن فلا".

وربت "111" على كتفها وهو ينزع حقيبتها عن ظهرها ويقول "بل يمكنك، ثقي بي"، ثم عاد ليشد الحبل كما فعل "31" من قبل ليتأكد من قوته، وقبل أن تعترض هي كان يحمل الحقيبتين واحدة على ظهره والأخرى لبسها على صدره وبدأ في قطع الطريق، وما أن وصل بدوره حتى ناداها "هيا تستطيعين فعل ذلك".

وتقدمت وهي خائفة، نزلت على جذعها قبل أن تمسك بالحبل وتبدأ في فعل ما فعلاه، أخذت تتحرك ببطء وحذر شديدين وهي تغمض عينيها، أما هو فقد كان قلبه يدق بشدة قلقا عليها، وكأن الوقت الذي أخذت تدفع فيه جسدها للوصول إليهم قد أصبح دهرا كاملا، ومع النهاية صرخت "لا أستطيع أكثر من ذلك، يداي لا تقويان على حملي".

تمدد "111" على بطنه وهو يمد يده ويحفرها "هيا خطوتان أخريان لا أطلب منك أكثر من ذلك"، وفتحت عينيها والدموع تفر منهما لترى يده الممتدة إليها، فدفعت جسدها، دفعته حتى سارت على مقربة من يده وأفانت يد لتمدها إليه، وتلامست أصابعهما فقال لها "خطوة أخرى، خطوة واحدة فقط"، وعادت لتدفع، وما أن أمسك بيدها حتى جذبها، جذبها وهو يطبق على يدها بكلا يديه، وما أن شعرت بيده تمسك بها حتى انهارت قواها تماما، وعلى بعد ذراع واحد سقط جسدها بالكامل وهي يغشى عليها، أمسك بها بكل قوته ورفعها وقد فقدت وعيها، فتتمدد أخيها إلى جواره ليعاونه على رفعها وهما يظنان أن ما بها بسبب شدة الإعياء والخوف.

أسند "111" ظهرها إلى الجدار وهو ينظر إليها قلقا، أمسك برأسها وهو يحاول أن يهزها كي تفيق، ولكن بدأ لون وجهها يمتقع وهو يتحول إلى الأزرق وأخذت تتنفس بصعوبة، عاد ليهزها وهو ينادى عليها فأزاح أخيها يده جانبا ليفحصها، وإذا به يجد أمامه مباشرة الشرخ الذي أصاب خوذتها، عرف إنها فقدت وعيها نتيجة تسرب الهواء طيلة الطريق وليس خوفا كما اعتقد، واتسعت عينا "111" رعبا حينما رأى الشرخ، ولكنه لم يدر ماذا عليه أن يفعل، حاول أن يسده بيده وهو ينادى عليها ويهزها مرة أخرى علها تفيق دون جدوى، كان يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ما هو لا يعرفه، في الوقت الذي عبر فيه "509" الحبل ووصل إليهم ووقف بدوره عاجزا عن فعل أي شيء.

وبكل هدوء سحبها "31" ووضع رأسها على جذعه بينما "111" يذرف دموعه في صمت وطلع من شعوره بأنه سيفقدها وهو يمسك بيدها ويحاول يائسا أن يدلکها.

ودون أن ينطق "31" بكلمة واحدة، خلع عنها خوذتها وسط نظرات "111" و "509" المتعجبة مما يفعل والأول يسأله "ماذا تفعل؟"، ولم يجبه، فقط أكمل ما يفعله، مد يده وخلع خوذته بدوره ثم قبل جبينها، قبله أودعها كل ما كان يتمنى أن يخبرها به ولم يفعل، ثم ألبسها خوذته وأحكم إغلاقها لتأخذ شهيقا عميقا وهي لا تزال فاقدة للوعي، نظر إليه "111" وهو لا يصدق ويقول "ولكنك هكذا ستتموت لا محالة".

أسند "31" ظهره إلى الجدار ودفع بها برفق إليه وهو يقول, "احملها وستفيق بالتأكيد بعد قليل, هي بخير, وأحرص على أن تكمل الطريق وتصل, إذا أردت أن تساعدني في أن أكفر عما فعلته معها فيجب أن تعبر هي البوابة".

"وأنت؟"

قالها "111" فدفعه "31" بكل ضيق وهو يقول "أنا بخير سأحاول أن أهبط إلى أسفل وأن أبحث عن خوذة سليمة بين هذه الجثث وستجدني خلفكم, والآن هيا لا ترهقني بالحديث, أكمل طريقك".

ولم يعرف "111" ماذا عليه أن يقول, فقط قام من مكانه وحملها وهو يومئ برأسه شكرا وامتنانا لما فعله, وتحرك بها وهي بين ذراعيه, بينما توقف "509" لثوان متأثرا ثم ربت على كتفه بيده وهو يقول له "أنت بطل", فربت "31" على يده تلك بدوره وهو يبتسم ويجيبه "لا وقت لهذا الكلام, هيا أنت الآخر وسألحق بكم, تأكدوا من ذلك".

قالها وهو يتحرك ويبدأ في الهبوط وهو على يقين بأنه بدون خوذته لن يصل إلى أسفل أبدا, وعند نهاية الطريق, ومع المنعطف التالي التفت "111" ليلقى نظرة أخيرة عليه, ولكنه كان قد أختفي عن الأنظار تماما, فأكمل مسيره حاملا إياها ومن خلفه "509".

استمررا طويلا بالسير, هي على حالها بين يديه, وهما يسيران متجاورين بلا توقف, دون أن ينطقا كلمة واحدة لمسافة طويلة بعد أن فقدا.

"هل أنت حزين من أجله؟", سأله "509" مخترقا حصار الصمت الذي ضرب عليهما منذ فارقهما, وتحركت شفتا "111" ليجيب ولكنه عاد إلى صمته, هو حقا لا يعرف إجابة هذا السؤال, لما تأثر إلى هذا الحد بفقده؟, هل هو حقا حزين من أجله؟, بعد كل ما فعله معهما؟, ما فعله بهما اليومين الماضيين فقط كاف لأن يجعله يكرهه طيلة حياته, فمن أين له بهذا الحزن؟, وما تعجب له أكثر من حزنه هذا هو موقف "31" منذ البداية, لقد فهم الآن أنهم جميعا متشابهون, يحبون الأشياء نفسها, ويؤمنون بالقضايا نفسها, لا يمكنك أن تقابل أحدا يحب الحرب مثلا, حتى الجندي الذي يذهب إليها ليقتل حاملا سلاحه, لا يمكنك أن تقابل من يكره الحب, يخشاه البعض ولكنهم لا يكرهونه, ولن تقابل من يريد أن يرى الآخرين تعساء, ولكن, شيئا ما في طريقة تعبير كل واحد عن كل هذا يجعلهم مختلفين, شيئا ما في تطبيق كل منهم لما يؤمن به يجعله يضايق الآخر بطريقة أو بأخرى, إنه شيء غير مفهوم بالنسبة له على الإطلاق.

"كن وفيًا لحزنك يا صديقي, لا تقاومه, دعه يأخذ منك ما جاء ليأخذه, فلك أن تفخر بحزنك هذا, مهما فعل بكما فيكفيه إنه يشاركك حبها, أحبه من أجلها ولا تتذكر أي شيء آخر, فهو يستحق حقا أن نحزن من أجله", قالها "509" وهو يربت على كتفه ليتهد بعدها "111" وهو يجيبه "أنا حزين من أجله, لا أكرهه", عاد "509" ليربت على كتفه وهو يبتسم له ويقول "أنت بداخلك حيوان منوي بالفعل لم تلوثه الحياة, هنيئا لك بقلبك يا صديقي, وهنيئا لي أن أنهى حياتي بينكم, أنا لم أقابل طيلة حياتي حيوانات منوية كمثلكم, وكان رحلتي هذه معكم هي المكافأة الحقيقية لكل ما تحملته".

ابتسم له "111" بدوره وهو يقول "ربما لأنك قابلتنا ونحن على وشك الموت, الموت يخرج أفضل ما فينا, ربما لو كنت قابلتنا في يوم آخر في المدينة لما رأيتنا بهذه العين أبدا", وابتسم "509".

وبينما هما على حديثهما ضربت عيونهما أضواء تأتي من بعيد, فالتفتا أمامهما ليجدا أن البوابة قد بدأت بالظهور, كرة وردية تحيطها هالة زرقاء تسبح في الفراغ حولها, وقف كل منهما ينظر إليها وهو مأخوذ بما يرى وهي تتألق, كان من الواضح من الجثث المتناثرة حولها أن الكثيرين حاولوا ولم يتمكنوا من عبورها, وكان هناك قلة متبقية لا زالت تحاول العبور.

كانت الكرة تسبح في الفضاء المحيط بها وقد وقفوا جميعا وكل منهم يلقي بنفسه عليها وهو يتمنى أن يصيبه المجد وتفتح له أبوابها, في حين اصطفت الفرقة الموسيقية التي صحبتهم منذ البداية وهي تعزف لحنا حماسيا يزيد من حماسهم, ومن بقى معهم من المصورين المصاحبين أيضا كانوا ينقلون الصورة بثا مباشرا يشاهده كل من بالمدينة.

كان كل حيوان منوي قد أمسك بالسلاح الذي اختاره, فهاهو أحدهم كان ممسكا بسلسلة معدنية ضخمة "جنزير" ويلقى بنفسه وهو يضربها بقوة بسلسلته تلك ولكنه سقط ليختفي في هذا الفراغ, وآخر كان يحمل عصا طويلة سقط بها عليها دون جدوى أيضا.

وأمام أنظارهم فشلت جميع المحاولات, فأبتسم "111" وهو يقول لـ "509" "يبدو وكأنها تنتظرنا", فرد عليه "509" على الفور "بل يبدو وكأنها لا تنوى أن تمنح المجد لأحد", فعاد الأول ينظر إليه وقد اختفت الابتسامة من على وجهه وهو يقول "يا لك من متفائل", وضحك "509" وهو يسأله "والآن ماذا سنفعل؟", أراح "111" حمله برفق على الأرض وهو يخرج الحبل الأخير المتبقي معهم, حبّلها, وناولها إياه قبل أن يمسك بها مرة أخرى ويسندها ليحملها على ظهره وهو يقول له "والآن أربطنا سويا, واحرص على أن تحكم الرابطة دون أن تؤلمها, ولتنزل أنت أولا, ولتكن عينك علينا أثناء النزول".

وبالفعل تناول "509" الحبل وشرع في لفه حولهما وهو يربطهما إلى بعض جيّدا, وما أن انتهى وتأكد "111" من أن الحبل قد ربط جيّدا حتى أشار له ليبدأ بالنزول, ثم تحرك بعده, تحرك ببطء وحذر كي يتجنب السقوط, ولم يكن ينقل يده أو ذيله من بروز إلى آخر قبل أن يتأكد من أنه يحمله جيّدا, وبالفعل وصلوا إلى أسفل و"111" يلهث بشدة والثاني يساعده على فك الحبل, أراحها على الأرض ثم تقدم كلاهما ليريا المشهد الذي قطعوا من أجله كل هذه المسافة من على قرب, كانت الفرقة الموسيقية قد توقفت عن العزف وجلسوا ليستريحوا بعد محاولة الحيوان المنوي الأخير, ولكن ما أن عادوا ورأوهم حتى وقفوا وأخذوا في العزف مرة أخرى, واقترب المصورين لتظهر صورتهم على الشاشات المنتشرة في ميادين المدينة, وبالمدينة رأوه وهو يحملها فصرخت "224" وهي تقفز فرحا وتلقي بنفسها بين ذراعي "153" الذي لم يصدق بدوره "إنهم أحياء, لقد وصلوا, وصلوا".

وأمام شاشة أخرى لمعت عينا الأب بالدموع حينما شاهدها ولم يرى ابنه, لقد أنتصر حبهما وأصبحا معا أمام أعين الملايين ولا أحد يمكنه أن يمنعهما أو يفرقهما الآن, تمنى لو هلة لو كان تركهما ليكونا معا هنا أمام عينيّه, فقد ابنه وفقدها دون أن يحقق أي شيء.

وعلى جميع الشاشات كان المشهد عظيما ومؤثرا، والكرة تتألق وتدور حول نفسها بخفة في الفراغ المحيط بها، و"111" يسأل "509" دون أن يدبر عينيه عن الكرة أو يلتفت إليه، "ألا يغريك المشهد بأن تعيد حساباتك وتحاول؟"، فرد الثاني "لا يغريك جمالها يا صديقي فلسنا ندرى حقا إلى أين تقود، وكما أخبرتك من قبل، فالحياة التي عشتها تجعلني لا أصدق في أية حياة أخرى، فما بالك بحياة مجهولة؟، جمالها لا يغريني بأكثر من أن أتصور صورة سيلفي معها"، قالها ضاحكا وهو يخرج بالفعل هاتفه ويستعد لالتقاط صورة حينما صدرت منها آهة، آهة جعلت قلب "111" وقلب أبيها وقلبي "153" و"224" تنتفض في آن واحد، والأخيرة تشهق تأثرا وهي تتابع تغييرها ما يحدث أمامهم على الشاشات.

أسرع "111" إليها وقد بدأت تستعيد وعيها ثم مال نحوها فرحا وهو يقول "مرحبا بك مرة أخرى، أفلقنا جميعا عليك"، كانت تمسك برأسها فهي لا زالت تعاني من دوار ولكن أثارها الهالة الخارجة من الكرة واتسعت عيناها على الفور انبهارا وهي تقول "نحن هنا حقا؟"، أهذه هي البوابة إلى العالم الآخر؟"

أبتسم "111" وهو يومئ برأسه إجابا فأمسكت بذراعه لتقف وساعدها بدوره على النهوض لتقترب وترى بعينيها المشهد الذي طالما حلمت في طفولتها به، قبل أن تتلفت حولها متعجبة وهي تتساءل "أين "31"؟"

وهنا نظر "509" إلى الأرض وهو يخفض رأسه، وأمسك "111" بيدها وهو يقول "سيلحق بنا"، فأسرعت تسأله "يلحق بنا أين؟، ماذا حدث؟"، "لقد تحطمت خوذتك فخلع خوذته وألبسك إياها ثم تحرك ليبحث عن خوذة أخرى وقال إنه سيلحق بنا، إنه يحبك كثيرا، وأنت تعرفين أنه مقاتل لا مثيل له، سيفعلها ويعود إلينا".

كانت دموعها تسيل في صمت و"111" يخبرها بما حدث، وللمرة الأولى ترك أبيها دموعه دون أن يقاومها حينما سمع بذلك، تركها لتفيض على وجنتيه دون أن يقول شيئا، ولو كان وحده، ولو لم يكن بين كل هؤلاء لصرخ ألما، لهنه كطفل من الحرقلة التي يشعر بها الآن في قلبه.

تركت هي يده وارتمت بين ذراعيه، فمد يده ومسح دموعها ثم تذوقها وهو يقول مازحا "مالحة، لكنها لذيدة، مثلك"، فضحكت لدعابته وهي تقول "ربما كان على الدموع أن تكون محلاة، فمن الطبيعي ألا نحب طعم الملح المذاب في الماء هذا"، فأمسك بذقنها ليرفع وجهها وينظر داخل عينيها ويقول "وربما كان عليها أن تكون ملونة، أن تكون دموع الحزن سوداء مثلا، ودموع الألم حمراء على سبيل المثال، ودموع السعادة خليط من كل الألوان التي نحبها، فربما أصبح البكاء حينها فعلا مبهجا".

فعدت لتبتسم والهالة المحيطة بالكرة تتوهج أكثر، كانت الأشعة الوردية تخرج من باطنها أكثر قوة، وكأن درعها الخارجي يضعف، فأبتسم "111" وهو يقول لها، "يبدو وكأنها تناديك"، فرفعت رأسها من صدره ونظرت إليه مستنكرة، "مستحيل، لن أتركك حتى وإن كان الثمن حياة أخرى، أنت تعرف ذلك جيدا، حياة أخرى كاملة لست فيها لا تعادل الوقت الذي سنقضيه سويا هنا، بما سيفيد الخلود بدونك؟"

قالت لها وهي تعود لتضع رأسها على صدره فأبتسم وهو يقول "كنت أعرف أنك ستقولين هذا", ثم رفع رأسها وهو يقول "أريد أن أسألك سؤالاً", نظرت داخل عينيها وشففتها تحمل تلك الابتسامة فأكمل "هل لو كنت اخترت العبور, هل تعتقدين أنك كنت ستذكرينني في هذه الحياة الأخرى؟", هل ستذكرين كل هذه التفاصيل وكل ما حدث؟", فأجابته على الفور "بالتأكيد", فعاد ليسألها "ألا زالت الوردية التي أعطيتك إياها معك؟", وهنا مدت يدها في جيبها وأخرجتها وهي تنظر إليها وتبتسم "لا زالت هنا", فأبتسم بدوره وهو ينظر إلى "509" ويقول "يبدو أنه لا مفر من ذلك يا صديقي فلن نضيع الفرصة بعد وصولنا إلى هنا, ألا يغريك المشهد بأن تعيد حساباتك وتحاول؟", ونظر إليه "509" وقد فهم ما ينوي "111" فعله, فأبتسم وقال "وكيف لا يغربني هذا المشهد, ربما كانت فعلا الحياة الأخرى تستحق".

ثم تحرك نحو الحافة وهو يلقي نظرة نحو الكرة فتقدما نحوه, ودعها "509" وهو يحتضنها, قبل أن يودع "111", وهنا أخذت الفرقة تعزف اللحن على نحو تحفيزي أسرع وبصوت أعلى لتشعل بداخله الحماس المفقود, فالتفت "509" إليهم وأنفعل عليهم "كفى, ألا ترون أنني أحاول أن أودع أصدقائي هنا", فتوقفوا تماما عن العزف وهم يتعجبون مما فعل فعاد ليقول "عذرا لا تتضايقوا مني, ولكن كما ترون فأنا لا أتحمل المواقف المؤثرة, هل يمكنني أن اطلب منكم لحنا هادئا", تعجبت الفرقة أكثر ولكنهم وقف أحدهم وبدأ يعزف لحنا كلاسيكي على ألتة الكمان فتبعته باقي الفرقة الموسيقية.

والتفت "111" إليها, أحتضنها بقوة فاستسلمت بين ذراعيه وفرت منه دمعة دون أن تراها, فقد كانت رأسها كلها مدفونة في صدره, وحينما ضمها أكثر وطال به الوقت ضحكت وهي تقول "هو من سيذهب يا حبيبي ولست أنا هل نسيت؟" فرفع رأسه ونظر إليها لترى تلك الدمعة في عينه, وفهمت على الفور ما ينوي فعله, ولكن قبل أن يصدر عنها أية ردة فعل قال "أحبك", ودفعها بكل قوته لتسقط نحو الكرة مباشرة وهي تصرخ "لا, لا, لا".

وأمام عينهما, وأمام أعين الملايين الذين وقفوا في صمت تام أمام الشاشات يتابعون بتأثر ما يجري أمامهم, كانت هي تسقط على ظهرها في الفراغ باتجاه الكرة وهي تحمل في يدها تلك الوردية, وفي مشهد عجيب توهجت الكرة الوردية أكثر وأكثر وسطحها الخارجي يتحول إلى رسم لوردة كبيرة مماثلة تماما لتلك التي تحملها في يدها, قبل أن يرسم على السطح نفسه وجهها مبتسم يحمل قلبين بدلا من العينين, وانفتحت لها الأبواب, عبرت تاركة ذيلها وحده ليسقط بالخارج قبل أن تغلق الكرة تماما خلفها, وتوهجت وهج أخير لم تتحمله عينا "111" و "509", كانت وكأنها تشتعل, فأغمضا عينهما ورفعاه يدهما ليغطيا وجههما من قوة الوهج, وما هي إلا ثوان حتى خبت الأضواء وانطفأت الشعلة لتتحول الكرة إلى اللون القاتم.

وجلس "111" مكانه, استراح وهو يفكر فيها, فتحرك "509" ليجلس إلى جواره, قال له الأول وهو يسند ظهره على الجدار, "هل تعتقد أنها حقا الآن في عالم أفضل؟", فأبتسم الثاني وهو يجيب "أتمنى ذلك, من أجل كل ما قطعناه, من أجل ما عانينا وكل ما حدث, أتمنى ألا يكون كل ذلك قد ذهب هباء", قال ما قال وهو لا يؤمن بحرف واحد منه, ولكن لم يكن له أن يخبره بأنه حتى ولو كان هناك عالم آخر أفضل فمن العدل ألا نتذكر فيه كل ما مررنا به في حياتنا الأولى, أن ننسى كل ما عانيناه, فتذكر الألم نوع آخر من العذاب, وفي الغالب مثل هذا العالم لا يمكن أن

يكون له وجود, فكلها عوالم متشابهة, ما يحدث هناك لن يكون سوي امتداد لما يحدث هنا, وما يحدث هنا ليس سوي انعكاس لما سيحدث هناك, ولكن لم يكن له أن يخبره بكل هذا, خاصة مع حالة الانتشاء تلك والرضا الذين يسيطران عليه, كان يرى على وجهه السلام الذي يسكن المحب بعد أن يضحي من أجل حبيبته, شعور طبيعي سيمنعه من أن يشعر بأي ألم أو حزن ما تبقى لهما من وقت, مادام يصدق إنها حقا في عالم أفضل.

فتح "111" حقيبته ليخرج زجاجة النبيذ المتبقية ويفتحها ويشرب منها قبل أن يقول "والآن ماذا؟", فضحك "509" وهو يقول بصوت عال "والآن سنموت", ثم مد يده ليتناول الزجاجة وهو يرفعها تحية للفرقة الموسيقية التي أخذت تعزف خصيصا لهما, أخذ "509" يشرب بدوره وكلاهما يضحك بصوت عال, الضحكات الأخيرة.

وبعيدا, في مدينتهم, كان "153" قد أستيقظ في الصباح, وقاد دراجته ذاهبا إلى عمله, كان متأنقا على غير المعتاد, وما أن مر على الأطفال الذين يلعبون أمام حديقتهم حتى توقفوا جميعا وابتسموا له, فأبتسم لهم وهو يكمل طريقه ليوقفه الضوء الأحمر لإشارة المرور المعتادة, وإلى جواره مباشرة كان والد "52" في المقعد الخلفي لسيارته ينتظر أن تفتح الإشارة أيضا, فتح زجاج السيارة وهو يبتسم لـ "153" ويلقى عليه التحية فرد عليه الثاني التحية نفسها, قبل أن يلتفت كلاهما أمامهما مباشرة, ففي الميدان المقابل لمبنى مركز الأبحاث كان يوجد شيئا لم يكن موجودا من قبل, كان هناك تمثالا لـ "111" وهو يمسك بيد "52" ويهربان, تمثالا وضع هناك خصيصا ليذكر الجميع بما حدث, وأسفل قاعدة التمثال نقشت جملة واحدة:

"لست وحدك, فنحن معك".

ابتسم وهو يقرأ الجملة البارزة ويتذكر حديثه مع "224".

"في هذه المدينة ما لا يغيره الزمن لا يغيره سوى الثورة".

"وماذا عن ما لا يغيره الثورة؟"

"لا يتغير أبدا".

هز رأسه نفيا وهو يتمتم "في هذه المدينة ما لا يغيره الثورة لا يغيره سوى الحب".

وأعلنت الإشارة عن ضوئها الأخضر لتفتح الطريق أمام الجميع.



إذا سألتها أحدهم قبل يوم واحد كيف تتخيل أن يكون يومها الأخير معه؟ لكان لها أن تضع عشرات السيناريوهات، ما بين أمسية على شاطئ مع الموسيقى والرقص والشراب، وبين البقاء في الفراش بين ذراعيه، كان يمكنها أن تذهب بخيالها كيفما تشاء، ولكنها لم يكن لها أن تتخيل أبدا أن تقضي هذا الوقت الأخير معه في مواجهة كل هذه المخاطر، في تسلق مرتفعات والهروب من فطريات الصديد ومقاومة أمواج من الماء، واصبع ضخمة يتحرك بجنون، لقد منحها القدر نهاية أفضل بكثير مما كانت تحلم بها، منحها الإحساس بالخطر معه، ووحده الإحساس بالخطر مع من نحب يجعلنا نكتشف أين يكمن الأمان، وحينما تأكدت أنه يكمن في أن تكون معه، وإلى جواره، عرفت أن اختيارها منذ البداية كان صحيحا، ولا توجد متعة قد تقدمها الحياة لنا كمثمة التأكد من صحة اختيارنا.

